The Journal of al-Quds Open University for Humanities and Social Studies. No-(68). January 2026.
https://journals.qou.edu/index.php/jrresstudy.
E- ISSN: 2616-9843 /P-ISSN: 2616-9835.

The Canaanites In the Iron Age And Biblical Narrative: A New Scientific Reading

Faisal Saeed Zakarneh*
1PhD student in History and Archaeology, Faculty of Humanities and Arts, University of Mannuba, Tunis, Tunisia.
Orchid No: 0009-0009-0545-2018
Email: faisalz2012@yahoo.com

Received:
December 10, 2024
Revised:
December 10, 2024
Accepted:
October 5,2025

***Corresponding Author:**
faisalz2012@yahoo.com
Email:
faisalz2012@yahoo.com

Citation:
https://journals.qou.edu/index.php/jrresstudy

2023©jrresstudy. Graduate Studies & Scientific Research/Al-Quds Open University, Palestine, all rights reserved.

• **Open Access**

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Abstract

Objectives: This research aims to study the Canaanites and their civilization role during the Iron Age in Palestine. It also seeks to refute the biblical narrative related to that period, which employed unscientific methods to achieve political goals associated with the Zionist colonial project. Additionally, the research aims to present new scientific readings of that era, based on credible scientific standards.

Methodology: The research adopts historical and descriptive analytical methods, analyzing historical narratives and scientific criticism to reveal biases and distortions, alongside a new methodology based on genetic studies and environmental and climate sciences, providing modern and neutral readings.

Results: The research concluded that the Canaanites were not exterminated as stated in the biblical narratives, but rather continued in the Iron Age and preserved their culture, the collapse of the biblical narrative of the history of Palestine in the Iron Age, and the presentation of new readings based on modern scientific evidence.

Conclusion: The importance of the civilization role of the Canaanites in the Iron Age and its continuity through their descendants, represented by the contemporary peoples of the Levant in Palestine, Syria, Lebanon, and Jordan.

Keywords: Canaanites, Iron Age, Biblical narrative, Genetic studies, Philistines, Archaeological Excavations.

الكنعانيون في العصر الحديدي والرواية التوراتية "قراءة علمية جديدة"

فيصل سعيد زكارنة [1]
1 طالب دكتوراه تاريخ وآثار، كلية الآداب والإنسانيات جامعة منّوبة، تونس، الجمهورية التونسية
المراسل المعتمد: 1 فيصل سعيد زكارنة

الملخص

الأهداف:يهدف البحث إلى دراسة الكنعانيين ودورهم الحضاري في العصر الحديدي في فلسطين، وتفنيد الرواية التوراتية حول تلك الفترة، والتي اعتمدت على مناهج غير علمية لتحقيق أهداف سياسية مرتبطة بالمشروع الاستعماري الصهيوني. كما يهدف البحث إلى تقديم قراءات علمية جديدة لذلك العصر تستند إلى معايير علمية ذات مصداقية.

المنهجية:يعتمد البحث المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي، وذلك بالاستناد إلى تحليل السرديات التاريخية والنقد العلمي للكشف عن التحيزات والتحريفات. فضلًا عن منهجية جديدة، بالاستناد إلى نتائج الدراسات الجينية وعلوم البيئة والمناخ، وتقديم قراءات حديثة ومحايدة.

النتائج:توصل البحث إلى أن الكنعانيين لم يبادوا كما ورد في السرديات التوراتية، بل استمروا في العصر الحديدي، وحافظوا على ثقافتهم، وسقوط الرواية التوراتية لتاريخ فلسطين في العصر الحديدي، وتقديم قراءات جديدة بناءً على الأدلة العلمية الحديثة.

الخلاصة:أهمية الدور الحضاري للكنعانيين في العصر الحديدي واستمراريته عبر أحفادهم المتمثلين في شعوب بلاد الشام المعاصرة في فلسطين، وسوريا، ولبنان، والأردن.

كلمات مفتاحية: الكنعانيون، العصر الحديدي، الرواية التوراتية، الدراسات الجينية، الفلستيون، التنقيبات الأثرية.

مقدمة:

يعد الكنعانيون من أبرز المجموعات السكانية التي أثرت في منطقة الشرق القديم، وقد أدوا دورًا محوريًّا في تشكيل هوية فلسطين التاريخية على مر العصور. وقد تعرض تاريخ هذه المجموعة لتحريف وتزوير كبيرين بواسطة المرويات التوراتية وتفسيراتها، خاصة تلك الصادرة عن مدرسة علم الآثار التوراتي؛ الأمر الذي ساهم في حدوث خلل واضح في تاريخ فلسطين القديم. ومن أبرز الدراسات التوراتية السابقة في هذا السياق كتاب (آثار فلسطين The Archeology of Palestine)، لمؤلفه الشهير عالم الآثار الأمريكي وليم فوكس ويل اولبرايت (William Foxwell Albright)، والذي يعد مؤسس علم الآثار التوراتي. حيث يقدم في هذا الكتاب قراءة آثارية وتاريخية غير علمية، خاصة في العصور البرونزية والعصر الحديدي وما بعده من تاريخ فلسطين القديم، استنادًا إلى المخلفات الأثرية لبعثات التنقيب التوراتية، والتي اعتبر أنها تؤكد وتثبت ما ورد في مرويات العهد القديم.

ومع تطور علوم التاريخ والآثار والعلوم ذات الصلة، مثل علوم البيئة والمناخ وعلم الجينات والهندسة الوراثية، كلها مجتمعة، قدمت قراءة علمية حديثة لتاريخ فلسطين القديم. ومن أبرز الكتب التي قدمت نقدًا تاريخيًّا وآثاريًّا علميًّا للمرويات التوراتية وأدبيات علم الآثار التوراتي كتاب (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي The Early History of Israelite People)، لمؤلفة توماس تومبسون (Thomas Thompson)، وهو من رواد مدرسة الحد الأدنى والتي تدعو لكتابة تاريخ موضوعي ومحايد لفلسطين بعيدًا عن المرويات التوراتية. وكتاب (اختراع الشعب اليهودي The Invention of the Jewish People) لمؤلفة المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند (Shlomo Sand)، والذي وضّح كيف أن اختلاق إسرائيل القديمة، وتزوير التاريخ الفلسطيني القديم، جاء استجابة لأهداف سياسية تتعلق بالمشروع الاستعماري الصهيوني. أما الدراسة الجينية التي حملت عنوان (توضيحات الحمض النووي لأصول الفلستيين القدامى في العصر الحديدي المبكر Ancient DNA sheds light on the genetic origins of early Iron Age Philistines)، فقد قدمت قراءة حاسمة للتركيبة الجينية للفلستيين القدماء، والتي شكلت تفنيدًا قاطعًا للمرويات التوراتية حول غزو شعوب البحر الأوروبية لفلسطين. إن حركة النقد العلمي للمرويات التوراتية بأوجهها كافةً، صوبت ذلك الخلل الذي أحدثته المرويات التوراتية، خاصة المتعلقة بالكنعانيين.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

تكمن مشكلة الدراسة في تحريف وتزوير التفسيرات التوراتية لفترة مهمة من تاريخ فلسطين القديم، ورافق ذلك التزوير تغيير جذري في المشهد الحضاري لتاريخ فلسطين، خاصة أن ذلك المشهد تناول مجموعة سكانية هامة في فلسطين هم الكنعانيون، والتي روجت المرويات التوراتية وتفسيراتها بحقهم لنظرة سلبية متدنية، ألصقت بهم أبشع الصفات والسمات، وأنهت وجودهم الحضاري بادعاء إبادتهم، أولًا، بفعل غزو الإسرائيليين القدماء لفلسطين، وثانيًا، بغزو شعوب البحر لها. وعملت تلك المرويات على اعتماد ونشر مشهد حضاري بديل يفتقد الموضوعية والعلمية، وشوّه تاريخ المنطقة بأكملها، وخاصة فلسطين.

وعلى ضوء ما تقدم، فإنه يمكن صياغة السؤال الرئيس لهذا البحث على النحو التالي: من هم الكنعانيون والرواية التوراتية وكيفية نقدها؟ ومن خلال هذا البحث سوف تتم الإجابة عن الأسئلة الفرعية التالية:

1. كيف قام الباحثون التوراتيون باختلاق مشهد مزور لتاريخ فلسطين القديم، واختلاق ما يسمونه بمملكة إسرائيل الموحدة؟
2. هل أبيد الكنعانيون وانتهى وجودهم الحضاري وثقافتهم المادية مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي، كما ادعت المرويات التوراتية؟

3. كيف ســـاهمت التنقيبات الأثرية الحديثة، وبيانات علوم البيئة والمناخ، وعلوم الهندســـة الوراثية، في نقض الرواية التوراتية، وتقديم قراءة علمية لتاريخ فلسطين في العصر الحديث؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة فترة زمنية هامة من تاريخ فلسطين القديم المتمثلة بالعصر الحديدي، ويركز على أهم اللاعبين الأساسيين في ذلك العصـــر، وهم الكنعانيون، الذين أدوا دوراً بارزاً في الأحداث التاريخية في ذلك العصـــر، وســـاهموا في تحديد هوية فلســـطين وثقافتها. كما يهدف البحث إلى توضـــيح مواطن الخلل في الرواية التوراتية ونقضـــها، اســـتناداً إلى العلوم الحديثة، وعلى رأســـها علم الجينات والهندسة الوراثية.

فرضية الدراسة:

تنطلق هذه الدراســـة من فرضـــية محددة تتلخص في أن الكنعانيين لم تتم إبادتهم كما ادعت المرويات التوراتية، ولم تنتهِ ثقافتهم، بل اســتمروا في ممارســة دورهم الحضــاري الطبيعي في العصــر الحديدي وما بعده، وصــولاً إلى العصــر الحاضــر، إذ إن إرثهم الثقافي وجيناتهم تمثلت بشكل غالب في شـعوب بلاد الشـام المعاصـرة في فلسـطين وسـوريا ولبنان والأردن، والذين يعتبرون الأحفاد المباشـرين للكنعانيين القدماء.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في تقديم قراءة علمية جديدة لأحداث العصر الحديدي في فلسطين، ونقض الرواية التوراتية الشائعة، فضلاً عن تسليط الضوء على الاستمرارية الحضارية والثقافية والعضوية البيولوجية للكنعانيين في فلسطين، وعلاقتهم بشعوب بلاد الشام المعاصرة، خاصـة مع الفلسـطينيين المعاصـرين. إن اسـتخدام مخرجات الدراسـات الجينية والهندسـة الوراثية الحديثة يشـكل أداة علمية جديدة، يمكن من خلالها قراءة التاريخ القديم بصورة علمية وأكثر صدقية، وهذا ما ينفرد به هذا البحث، ويميزه عن باقي الدراسات التي تستخدم مناهج وأدوات تقليدية، لا تقدم أدلة قاطعة وحاسمة.

منهجية الدراسة:

اعتمدت هذه الدراســة منهجين علميين يناســبان موضــوع الدراســة، وهما المنهج التاريخي، والمنهج الوصــفي التحليلي، وذلك من خلال تحليل الســرديات التاريخية والنقد العلمي، للكشــف عن التحيزات والتحريفات المرصــودة في فترة العصــر الحديدي من تاريخ فلســطين القديم، فضلاً عن الاستعانة بنتائج الدراسات الجينية الحديثة.

أولًا: نهاية العصر البرونزي المتأخر ونشوء الرواية التوراتية

تعد نهاية العصر البرونزي المتأخر، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فترة محورية وأساسية في التاريخ التوراتي، فالباحثون التوراتيون يدعون أن هذه الفترة هي فترة ظهور القبائل العبرية والخروج من مصر والتيه في سيناء، والدخول إلى كنعان، أرض الميعاد (فلسطين)، حسب المرويات التوراتية، ويربط الباحثون التوراتيون القبائل العبرية تاريخيًّا بمجموعات العبيرو وتحركاتهم، والذين ظهر اسمهم في عدة مصـــادر تاريخية خلال العصـــرين البرونزي المتوســـط والمتأخر. ويذهب بعض الباحثين إلى الإعجاب بروح أولئك العبرانيين القدماء، واكتسـابهم روح البداوة والأصـالة، متمتعين بالنقاء الذهني الذي اكتسـبوه من الصـحراء أثناء تجوالهم (Grant,1927,44). يجمع العديد من الباحثين المجددين على أن مجموعات العبيرو متعددة الأعراق، وهم أشـــبه بالمرتزقة، إذ لم تعرف لهم لغة أو ثقافة محددة، بل عملوا جنودًا وفلاحين وقطاع طرق، وأول المصـادر التاريخية التي تشـير إليهم من العصـر البرونزي المتوسـط في القرن 18 ق. م. هي وثائق

ماري (تل الحريري)، كما أشارت لهم بعض النصوص الحثية كجنود. أما نصوص الألاخ (تل العطشانة)، فأشارت إليهم باعتبارهم مجموعات قدمت خدمات للملوك والحكام، مقابل أجور نقدية وعينية، وتشير إلى أن مناطق سكن تلك المجموعات كانت مشبوهة، وتأوي المطلوبين للعدالة؛ وبذلك اعتبر العبيرو فئة اجتماعية متدنية، وليست مجموعة إثنيه أو عرقية محددة، ولم تحتل أية مرتبة في الهيكل الاجتماعي الكنعاني. وفي نفس هذا السياق تحدثت عن العبيرو مراسلات تل العمارنة في القرن 14 ق. م. من العصر البرونزي المتأخر (السواح، 2002، 27)، وبالتالي فإنه لم يتوفر أي دليل علمي يثبت ذلك الربط بين العبيرو والقبائل العبرية القديمة. ويؤمن الباحثون التوراتيون أن هذه الفترة شهدت بداية إقامة مملكة إسرائيل الموحدة، بعد غزو كنعان من قبل الإسرائيليين العبرانيين وإبادة أهلها، كما يدعون أن معظم يهود العالم في الوقت الحالي يعودون في نسبهم إلى أولئك الإسرائيليين العبرانيين القدامى (إبراهيم، 2010، 213).

يؤكد الباحثون التوراتيون، وعلى رأسهم وليم أولبرايت، أن نتائج التنقيبات الأثرية تشير إلى حدوث دمار وحريق هائل في المواقع الكنعانية مثل لخيش (تل الدوير)، وتل بيت مرسيم ومواقع أخرى في فلسطين، ويعيد أولبرايت تاريخ ذلك الدمار إلى 1220 ق. م.، ويضيف بأن ذلك الدمار قد حدث قبل السنة الرابعة من حكم الفرعون المصري مرنبتاح ابن رمسيس الثاني. كما يؤكد أن تل السلطان (أريحا) وبيت أيل (تل بيتين)، قد تعرضتا لنفس الدمار قبل ذلك التاريخ. ويعزو أولبرايت ومعه المدرسة التوراتية، ذلك الدمار في المواقع الكنعانية للغزو الإسرائيلي لكنعان، وأنه بهذا الغزو الإسرائيلي، وغزو شعوب البحر لفلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ينتهي وجود الكنعانيين في فلسطين، وبذلك تنتهي ما سماها فلسطين الكنعانية (كفاف، 2019، 23–24؛ اولبرايت، 1971، 109–110).

إن منهج أولبرايت لم يعتمد على المعايير العلمية المتعارف عليها، فالكثير من الباحثين المجددين، ومن ضمنهم باحثون إسرائيليون، عملوا على التفكيك الحرفي للرواية التوراتية التي يطرحها أولبرايت ومدرسته، خاصة تلك التي تتعلق بالغزو الإسرائيلي لكنعان، مع نهاية العصر البرونزي المتأخر (تومبسون، 1995، 19). ففي تتبع رحلة خروج بني إسرائيل من مصر إلى كنعان، تطرح المرويات التوراتية صراع الإسرائيليين مع ملك عراد الكنعاني، حيث دعا الإسرائيليون الرب لتخليصهم من ذلك الملك الظالم. يؤكد العديد من علماء الآثار والمنقبين في موقع تل عراد بالقرب من بئر السبع في صحراء النقب، أن نتائج التنقيبات الأثرية الحديثة تؤكد أن مدينة عراد الكنعانية كانت مزدهرة وعامرة بالسكان في العصرين البرونزي المبكر والمتوسط، أما في العصر البرونزي المتأخر، فقد هجر ذلك الموقع تمامًا. وهذه النتيجة العلمية تفند الرواية التوراتية بكل تفاصيلها، بما فيها التاريخ المفترض، وهو نهاية العصر البرونزي المتأخر (فنكلشتاين وسيلبرمان، 2007، 99).

يطرح عالما الآثار إسرائيل فنكلشتاين Israel *Finkelstein* ونيل سيلبرمان *Neil Silverman* *في كتابهما الشهير (التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها)* تساؤلات حول قضايا وتفاصيل وردت في المرويات التوراتية وتفسيراتها غير القابلة للتصديق أو التطبيق العملي، ولا تخضع للمنطق، إذ يناقشان ما ورد في سفر يوشع عن الغزو الإسرائيلي لكنعان، فيتساءلان: كيف لمجموعة من الرحل التائهين في صحراء سيناء، مع وجود الأطفال والنساء، في أن ترتب وتغزو غزواً استراتيجياً، وتحقق نصرًا على حصون أريحا وغيرها من المدن الكنعانية، مع وجود تلك الجيوش المنظمة بعرباتها المدرعة، في مقابل أولئك الإسرائيليين الرحل؟! (فنكلشتاين وسيلبرمان، 2007، 108). وقبل تلك التفنيدات الحديثة التي طرحها الباحثون المجددون لما ورد في مرويات العهد القديم، خاصة سفر يوشع وحديثه عن الغزو الإسرائيلي الكاسح لأريحا وغيرها في نهاية البرونزي المتأخر، فقد سبق تلك التفنيدات رأي مستقل قديم قدمته عالمة الآثار

الإنجليزية كاثلين كينيون Kathleen Kenyon والتي نقبت في تل السلطان (أريحا) لعدة مواسم من 1952–1958 م، حيث أكدت عدم توفر أدله أثرية قاطعة على ذلك الغزو المزعوم للإسرائيليين الأوائل (كينيون، 1978، 33–35). وتوضح كينيون أن الكتاب المقدس العبري يحمل العديد من التناقضات، وهناك فجوة في التسلسل الزمني الأثري مع التسلسل الزمني الذي يطرحه العهد القديم حول الغزو ودخول بني إسرائيل إلى كنعان عبر أريحا، الأمر الذي لا يمكن على أساسه التوفيق بين البيانات التاريخية الأثرية، والمرويات التوراتية، للوصول إلى نتيجة حاسمة حول ذلك الغزو المفترض (كينيون، 1978، 258)

وفي نهاية ما استعرض، فإن الرواية التوراتية حول أحداث نهاية العصر البرونزي المتأخر، يشوبها الكثير من الضعف والخلل، فهي لم تستند إلى أي معايير علمية تعزز من صدقيتها، وهذا ما توضح من خلال التفنيدات العلمية التي جاءت في سياق الاستعراض السابق.

ثانيًا: الكارثة البيئية ونقض الرواية التوراتية في نهاية العصر البرونزي المتأخر

إن نهاية العصر البرونزي المتأخر شهدت انهيارًا ودمارًا حضاريًّا واسعًا في المشرق القديم، ومع استعراض جميع الفرضيات المطروحة، خاصة الغزو الإسرائيلي وغزو شعوب البحر لكنعان، أو الحرب الأهلية وغيرها من الفرضيات، فإن هذه الفرضيات غير معززة بأدلة قاطعة، وأن النتيجة الحقيقية التي أكدتها التنقيبات الأثرية الحديثة في أربعة مواقع كنعانية، وهي حاصور (تل القدح)، ولخيش (تل الدوير)، ومجدو (تل المتسلم)، وأفيق، تؤكد أن تلك المدن الكنعانية تعرضت للدمار تدريجيًّا، وعبر فترة زمنية طويلة تصل إلى مئة عام، ولم يكن ذلك الدمار قد حصل دفعة واحدة، وفي وقت واحد. وتتعزز الفرضية التي يتم نقاشها بين مختلف الباحثين والعلماء، وهي فرضية الكارثة البيئية وتدهور المناخ، كسبب لدمار العالم القديم شرق المتوسط، مع نهاية العصر البرونزي المتأخر (فنكلشتاين وسلبرمان، 2007، 129–130).

لقد تعززت فرضية الكارثة البيئية والتغير المناخي في الآونة الأخيرة، حيث وضحت بيانات علوم البيئة والمناخ أن منطقة شرق المتوسط قد تعرضت لكارثة بيئية مناخية مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، كسابقتها التي أصابت نفس المنطقة مع نهاية البرونزي المبكر. حيث بدأت ملامح تلك الكارثة تظهر مع بداية العصر البرونزي المتأخر، أي حوالي 1500 ق. م.، وكانت ذروتها في 1200 ق. م.، واستمرت بشكل متفاوت حتى انحسارها في 1000 ق. م.، حيث ساد القحط والمجاعة مختلف مناطق شرق المتوسط في كنعان والأناضول والأرخبيل الإيجي، ونتيجة لذلك فإن العوامل الطبيعية المصاحبة لتلك الكارثة أجهزت على معالم الحضارة المادية للعصر البرونزي المتأخر، وصاحب ذلك حركة من الهجرة الداخلية في بعض المناطق التي أصابها الجفاف والقحط، إلى مناطق أخرى أقل تأثرا داخل كنعان، خاصة فلسطين، وتحول بعض السكان إلى اقتصاد الرعي بعد انهيار الزراعة، كما أن هناك مناطق بأكملها أخليت من سكانها بسبب الجفاف، ومثال ذلك منطقة الجبال الوسطى والجنوبية في فلسطين، إلا أن هذه المنطقة قد أعيد الاستيطان فيها لاحقًا خلال العصر الحديدي من قبل نفس السكان الكنعانيين في فلسطين، ولكن الباحثين التوراتيين قد فسروا ذلك على أنه استيطان من قبل الإسرائيليين القدامى، والذين أسسوا مملكتهم هناك (تومبسون، 1995، 149–151؛ السواح، 2002، 79).

لقد أدت الكارثة البيئية والمناخية إلى انهيار القاعدة الاقتصادية في فلسطين، والمتمثلة في الاقتصاد الزراعي المحلي، وبالتالي عجزت المدن الكنعانية في فلسطين عن إعالة نفسها زراعيًّا؛ مما أدى إلى هجران وخراب العديد منها، وبدأ السكان بالسعي لتأمين معيشتهم عن طريق العمل بأنماط اقتصادية أكثر جدوى من الزراعة التقليدية، كإنشاء القرى والتجمعات في السهول والمناطق المفتوحة التي تتوفر فيها مصادر المياه، وزيادة الاعتماد على أشكال اقتصادية مقاومة للقحط كتربية ورعي المواشي، وزراعة الحبوب، وصيد الأسماك على طول الساحل (تومبسون، 1995، 212–213).

لقد رافق الكارثة البيئية انتشار الأوبئة والأمراض في عموم شرق المتوسط، ومنها فلسطين، مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، حيث تبدأ الملامح الأولى لانتشار تلك الأوبئة التي سبقت تلك الفترة بأكثر من مئة عام، أي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وتتوفر معلومات من خلال ألواح أوغاريت عن انتشار الأوبئة في المملكة، وهناك أربع رسائل من مراسلات تل العمارنة تشير بشكل واضح ومباشر إلى انتشار القحط والأوبئة والأمراض في كنعان، وبعض المناطق المجاورة. ففي رسالة من ملك ألاشيا (قبرص) إلى الفرعون المصري، يشير فيها إلى عدم إمكانية استخراج النحاس، وإرساله إلى مصر، بسبب وفاة معظم العمال نتيجة لانتشار الوباء. وفي رسالة ملك جبيل إلى الفرعون المصري، يشير إلى منعه سكان مدينة صمور من دخول جبيل لكونهم مصابون بالوباء. أما رسالة ملك امورو، فيطلب فيها القمح من الفرعون؛ لأن امورو مصابة بالقحط والمجاعة. وتشير رسالة بريديا، ملك مجدو، إلى طلبه المساعدة من الفرعون المصري لأن مدينته تعاني من الوباء (مرقطن، 2022، 84–85). يستنتج من تلك المصادر التاريخية انتشار الأوبئة، ولو بشكل محدود في بعض المناطق، إلا أنه مع وصول الكارثة البيئية إلى ذروتها في 1200 ق. م. قد تكون الأوبئة قد اتخذت مسارًا أوسع، ليتحول إلى جائحة أصابت معظم مناطق شرق المتوسط، وبالتالي زيادة عدد الوفيات والهجرة إلى أماكن أكثر أمانًا.

لقد فندت الكارثة البيئية والمناخية فرضيات الغزو المحتملة لفلسطين من أي طرف كان، سواء الغزو الإسرائيلي أو ما تبعه من غزو لشعوب البحر، وهو ما روجت له الدراسات الكلاسيكية والتوراتية منذ زمن طويل. أما فيما يتعلق بشعوب البحر وهجرتهم المفترضة من موطنهم الأصلي في الأرخبيل الإيجي، فهي ما زالت مثار جدل بين مختلف الأوساط العلمية، إلا أن الدارج، وحسب الدراسات الكلاسيكية، أن شعوب البحر ينتمون إلى الثقافة المسينية في منطقة الأرخبيل الإيجي بجزره المختلفة، وأنهم تعرضوا لاقتلاع واسع من موطنهم، فقسم منهم ذهب باتجاه الجنوب، أي الشواطئ الليبية، حيث تحالفوا مع الليبيين لغزو منطقة الدلتا المصرية، وهاجموا مصر، وهزمهم الفرعون المصري مرنبتاح وقضى عليهم في معارك بحرية وبرية حوالي 1220 ق. م.، وهو ما تم توثيقه في مسلته الشهيرة أنشودة النصر. أما القسم الآخر من شعوب البحر، فقد توجه شمالاً باتجاه الأناضول، وبدأ بالزحف باتجاه كنعان، وصولاً إلى فلسطين، حيث قاموا بغزو مصر من جنوب فلسطين، وواجههم الفرعون المصري رمسيس الثالث ابن مرنبتاح في معركة بحرية وبرية شهيرة عام 1191 ق. م. وهزمهم، وتفرقوا من بعدها، واستقرت مجموعة منهم وتدعى بالبليست حسب النقوش المصرية، في الساحل الجنوبي لفلسطين، وهي نفس المنطقة التي وردت في المرويات التوراتية باسم أرض الفلسطينيين، وحسب الوثائق الآشورية فقد وردت باسم فلستيا (السواح، 2002، 85–86).

ثالثًا: العصر الحديدي واختلاق إسرائيل القديمة في الرواية التوراتية

يمثل العصر الحديدي في فلسطين أكثر العصور التاريخية جدلاً وتعقيداً بسبب ما ورد في المرويات التوراتية وتفسيراتها، ونقضها من قبل الباحثين المجددين الذين عملوا على تفنيد تلك السرديات التوراتية المزعومة التي طرحها علماء الآثار التوراتيون، وعلى رأسهم وليم أولبرايت William *Albright* حول هذا العصر. ومن الضروري أن يتم عرض تلك السرديات أو القراءات التوراتية للعصر الحديدي في فلسطين، ولو بشكل موجز، قبل أن يتم تفنيدها بقراءات علمية حديثة تطرح أدلة قاطعة وحاسمة حول ذلك العصر الزاخر بالأحداث والفعاليات التاريخية.

حدد أغلب الباحثين التوراتيين التقسيم الزمني للعصر الحديدي اعتماداً على أسفار العهد القديم، وشمل تقسيمهم ثلاث مراحل أساسية: مرحلة الحديدي الأول، وهي تغطي فترة استقرار القبائل الإسرائيلية في فلسطين، ويغطيها سفر القضاة. ومرحلة الحديدي الثاني، وهي مرحلة إنشاء المملكة الموحدة وملوكها شاؤول وداود وسليمان، ويغطيها أسفار صموئيل والملوك. أما مرحلة الحديدي الثالث، فهي

انقسام المملكة الموحدة إلى مملكتين شمالية (إسرائيل)، وجنوبية (يهودا)، وشهدت هذه المرحلة صراعات المملكتين المنقسمتين، والممالك المؤابية والعمونية والآرامية (إبراهيم، 2010، 217). ويذهب بعض الباحثين التوراتيين إلى اعتماد اسم العصر الإسرائيلي بدلًا من العصر الحديدي، انطلاقًا من أن هذا العصر شهد نشوء مملكة إسرائيلية، وأن هذه المملكة الموحدة في ذلك العصر أدت دورًا جوهريًّا في الساحة الإقليمية، لذلك أسقط أولئك الباحثون مفهومًا إسرائيليًّا على السياق التاريخي الأثري، لينعكس ليس فقط على مضمون العصر، بل على اسم العصر نفسه (نجاجرة، 2012، 78 – 79).

في حين يطرح وليم اولبرايت William *Albright* تقسيمه التوراتي الخاص لمراحل العصر الحديدي، ويوضح أنه ينقسم إلى ثلاث مراحل أساسية، تختلف في مضمونها عن التقسيم السابق الذكر، بناء على رهن التقسيم الزمني بالقرون وليس بالعصور، اعتمادًا على المخلفات الأثرية من الفخار. فيذكر أن مرحلة الحديدي الأول تمتد من بداية القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن العاشر قبل الميلاد، ويطلق على هذه المرحلة مرحلة القضاة والمملكة الموحدة. أما مرحلة الحديد الثاني، فتمتد من أواخر القرن العاشر وحتى أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وهي مرحلة المملكة المنقسمة، وهي مملكتي إسرائيل ويهودا. أما الحديدي الثالث، فيمتد من القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهي مرحلة السبي البابلي والعودة من بابل إلى أورشليم حتى الحقبة الفارسية. (اولبرايت، 1971، 113-114).

يوضح أولبرايت أنه بعد الغزو الإسرائيلي لكنعان، والقضاء على الكنعانيين، وانحسار وجود من تبقى منهم في بعض المناطق الهامشية والساحلية في فلسطين في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، استقرت القبائل الإسرائيلية بعد ذلك بداية في المناطق الجبلية الوسطى والجنوبية في فلسطين. ومن المهم في هذا السياق تلخيص نظرة أولبرايت السلبية للكنعانيين، والتي تبناها معظم الباحثين التوراتيين من بعده، وطوروا عليها، والتي تتلخص في أنهم مجموعة سكانية مختلطة الأعراق والأصول، ظهروا في العصرين البرونزي المتوسط والمتأخر، وكونوا لهم ثقافة مادية موحدة، ذات ملامح متقدمة في بعض الجوانب، لكن أغلب ملامحها متدنية جدًّا ومفزعة. وبالعودة إلى ما يطرحه أولبرايت حول استقرار القبائل الإسرائيلية الأولى، فإن أولئك المستوطنين الإسرائيليين الأوائل ابتكروا طرقاً خلاقة في الزراعة وتوفير المياه في مستوطناتهم الجديدة، والتي تتمثل في بناء خزانات جيرية للمياه في المناطق الجبلية. وبعد ذلك الاستيطان الإسرائيلي الأول، يوضح أولبرايت بأنه مع حلول القرن الثاني عشر قبل الميلاد، غزت شعوب البحر الساحل الفلسطيني، واستوطنت فيه، وأشهر تلك الشعوب المسمون بالفلستيين، وقد استقروا في جنوب الساحل الفلسطيني، وبنوا ممالكهم الخمس الشهيرة هناك ما بين غزة وعقرون، وقضوا على من تبقى من الكنعانيين، وتعززت سيطرتهم على المجموعات الأخرى من شعوب البحر على طول الساحل الفلسطيني. دخل الفلستيون في صراع مع الإسرائيليين في المناطق الجبلية وهزموهم وسيطروا على مدنهم، واستولوا على تابوت العهد رمز ديانتهم المقدس، واستمروا في سيطرتهم على المناطق الإسرائيلية حتى قيام المملكة الموحدة، وقدوم الملك شاؤول أول ملوك الإسرائيليين عام 1020 ق. م. ، حيث هزم الفلستيين في عدة معارك، إلا أنهم قتلوه في معركة جبل جلبوع الشهيرة (شمال شرق جنين)، وسيطر الفلستيون مرة أخرى على البلاد لعدة سنوات حتى قدوم الملك داود سنة 990 ق. م. ، حيث هزمهم هزيمة كبرى على إثرها تراجعت مكانتهم في المنطقة، واقتصر نشاطهم على التجارة. يؤكد أولبرايت أن الفلستيين لم يتركوا أي أثر حضاري يذكر، باستثناء إبداء إعجابه بالفخار الفلستي الذي انتشر ما بين أوائل القرن الثاني عشر وأواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وفي سياق حديثه عن ذلك الفخار، يضيف أولبرايت أن أشهر المخلفات الأثرية من ذلك الفخار الفلستي هي أواني وأقداح الخمر والجعة، مما يمثل دليلاً قاطعا، بنظره، على أن الفلستيين كانوا مفرطين في شرب الخمر (اولبرايت، 1971، 115-117، 171-172).

رسم الباحثون التوراتيون صورة نمطية غاية في السلبية للفلستيين، معتمدين على المرويات التوراتية في تصميم تلك النظرة السلبية والدونية، إذ إن الفلستيين يتسمون بصفة شريرة بطبيعتهم، وأنهم غير ملتزمين بأية قواعد أو أصول دينية أو أخلاقية، ولا يتحلون بصفات الأشراف مقارنة مع الإسرائيليين. كما أنهم لم يساهموا بأي تأثير في القيم الثقافية الحضارية في فلسطين، وإنهم زالوا بسرعة، إذ لم يستغلوا واقعهم وظروفهم الجديدة بإنشاء أمة حضارية راقية، بل انكفأوا على القضايا التجارية والمادية السطحية. ومقابل تلك الصورة السلبية، تأتي النظرة المعاكسة والتي ترسم أبهى الصور للإسرائيليين القدامى على أنهم يتسمون بالشجاعة ونبل الأخلاق وصفاء الروح البدوية ونقائها (Grant, 1927, 40-42).

يصف الباحثون التوراتيون إسرائيل الموحدة زمن شاؤول وداود بالبدائية والتي اعتمدت على الزراعة والرعي، مع بروز التجارة نمطًا جديدًا لتلك المملكة لاحقًا في زمن الملك سليمان، بعد وفاة أبيه الملك داود عام 960 ق. م، إذ إن تراجع مكانة الفلستيين وانحسار تجارتهم نتيجة هزيمتهم من الملك داود، أتاح الفرصة لقيام إسرائيل ومملكة حيران في صيدا وصور على الساحل الفينيقي بشغل تلك المساحة التجارية، خاصة زمن الملك سليمان، نظراً للعلاقة الجيدة بين داود وسليمان مع حيران (أولبرايت، 1971، 121).

أما الملك سليمان، ثالث ملوك مملكة إسرائيل الموحدة، فيصف الباحثون التوراتيون عهده على أنه من أزهى وأعظم عصور الحضارة في فلسطين، ومن مؤشرات تلك العظمة المكتشفات الأثرية المبهرة، والتي تأيدت بشكل قاطع من أسفار التوراة، وتتمثل في اسطبلات الخيول في مجدو (تل المتسلم)، وتوصف بأنها تحفة معمارية فائقة، وتؤكد نسبتها لعهد الملك سليمان، وهو ما ورد من وصف دقيق للعظمة العمرانية في زمن سليمان في سفر الملوك الأول. ويستمر الباحثون التوراتيون في وصف المباني والقصور والبوابات والأسوار المنيعة، ليس فقط في مجدو (تل المتسلم)، بل لتشمل العديد من المدن مثل جازر (تل أبو شوشه)، وحاصور (تل القدح)، وتل تعنك وغيرها، وكلها منسوبة لعهد الملك سليمان، وقد استخدم بها نمط البناء الفينيقي، بابتكارات إسرائيلية بديعة. ولا بد من المرور على درة التاج السليماني وهي أورشليم (القدس)، والتي اعتبرها الباحثون التوراتيون عاصمة لإمبراطورية فائقة الحضارة والجمال. ومع وفاة الملك سليمان، تنتهي مرحلة الحديدي الأول، والتي وسمت فيها إسرائيل بالمملكة القوية والممتدة وفي أوج قوتها (اولبرايت، 1971، 124–128).

أما مرحلة الحديد الثاني الممتدة من القرن التاسع وحتى القرن السادس قبل الميلاد، فهي تغطي فترة انقسام المملكة الموحدة إلى شمالية تسمى بالسامرة أو إسرائيل، وجنوبية وهي يهودا، ويركز الباحثون التوراتيون في هذه المرحلة على توفر المصادر التاريخية التي اعتبروها أدلة قاطعة على ما ذكرته المرويات التوراتية حول التاريخ الإسرائيلي العبري ومجرياته، إذ يركزون على المكتشفات الأثرية العبرية البارزة، ويبدأون بموقع مدينة السامرة والتي بناها الملك عمري والد الملك أخاب في المملكة الشمالية عام 870 ق. م، ومن أبرز المكتشفات الأثرية نقش جازر الذي يعد من أهم النقوش العبرية الموثقة، وهو عبارة عن تقويم زراعي يلخص العمليات الزراعية الرئيسية خلال العام. وفي مرحلة المملكة المنقسمة، دخلت مملكة السامرة (إسرائيل) في صراع مع مملكة مؤاب شرق الأردن، ويتخذ الباحثون التوراتيون نقش ميشع المؤابي توثيقًا لذلك الصراع، إذ يوثق النقش هزيمة ميشع ملك مؤاب لإسرائيل بعد نهاية حكم أسرة الملك عمري في السامرة. ومن الوثائق الإسرائيلية التي توثق لهذه المرحلة جذاذات أو كسرات الفخار من السامرة، والتي اعتبرها الباحثون التوراتيون تأشيرات إدارية حكومية. وأبهى النقوش الإسرائيلية من هذه الفترة هو نقش حزقيا، وهو توثيق مكتوب بالخط العبري الكلاسيكي الأنيق، يوثق نهاية العمل بنجاح في نفق حزقيا (سلوان) في أورشليم (القدس). وتعد جذاذات لخيش من أبرز وأهم الكنوز الأثرية لهذه المرحلة، وهي عبارة عن إحدى وعشرين كسرة فخارية تؤرخ لفترة الأشهر القليلة الأخيرة قبل سقوط يهودا وأورشليم (القدس) على يد البابليين 588

ق. م.، وذلك بعد سقوط المملكة الشمالية على يد الآشوريين، مع نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. ويؤكد التوراتيون أن نهاية يهودا كانت باقتلاع سكانها وسبيهم إلى بابل، وأن التنقيبات الأثرية أكدت خلو معظم مناطق يهودا من السكان لفترة طويلة نسبياً (أولبرايت، 1971، 130-137).

أما مرحلة العصر الحديدي الثالث، فتمتد من القرن السادس وحتى القرن الرابع قبل الميلاد، وهي فترة الحكم البابلي والفارسي، وشهدت فترة السبي والعودة إلى أورشليم (القدس). ويعتقد التوراتيون أن هذه المرحلة، خاصة بعد السبي، تعد ذات ملامح غامضة بسبب شح المصادر التاريخية، ويعتقد أن هذه المرحلة قد شهدت العودة إلى يهودا والاستيطان فيها من جديد، ولو بشكل بطيء في مراحله الأولى، إلا أنه زاد بشكل كبير بعد القرن الرابع قبل الميلاد، ومنحت يهودا وباقي المناطق الفلسطينية حكما ذاتياً ضمن الدولة الفارسية، الأمر الذي مكنها من التركيز على العمل التجاري خاصة مع الإغريق، وهذا ما أيدته المخلفات الأثرية من المسكوكات النقدية بنقوش عبرية وآرامية، حسب رأي الباحثين التوراتيين (أولبرايت، 1971، 138).

من الاستعراض السابق، تم إيجاز الملامح الرئيسية للسردية التوراتية، والتي يعتمدها المؤرخون والباحثون التوراتيون لتاريخ فلسطين في العصر الحديدي، مع اختلافات في بعض التفاصيل الخاصة بتلك السردية، مستندين بشكل أساسي على ما ورد في أسفار العهد القديم، وتوفيقه مع المكتشفات الأثرية، على أساس غير علمي، وهو المنهج الذي اختلقه وليم أولبرايت William *Albright* مؤسس علم الآثار التوراتي، لتأكيد مصداقية مرويات العهد القديم وتاريخ إسرائيل القديم والإسرائيليين القدامى.

رابعًا: نقض الرواية التوراتية وسقوط علم الآثار التوراتي

أدى نشوء اتجاهات فكرية جديدة في ثمانينيات القرن الماضي إلى مراجعة نقدية بارزة لما طرح سابقًا حول تاريخ فلسطين وآثارها في الدراسات التوراتية، وذلك لما تحمله العوامل التي استندت لها تلك الدراسات التقليدية من ضعف، ولا يمكن الاعتماد عليها، خاصة تلك المتعلقة بالتاريخ المزعوم لمملكة إسرائيل الموحدة ونشوئها في فلسطين حسب مرويات العهد القديم. فقد شكلت التقلبات الفكرية التي طرأت على الاتجاهات الأدبية إزاء المرويات التوراتية العامل الحاسم في ذلك التغيير الجذري، بحيث أعادت تقييم المكتشفات الأثرية، وأدت إلى ظهور مناهج بحث جديدة مغايرة لتلك المعتمدة من مدرسة علم الآثار التوراتية، خاصة ما يطرحه مؤسس تلك المدرسة وليم أولبرايت (William *Albright*) (وايتلام، 1999، 221-222).

لقد خلقت تلك النقاشات الفكرية والمراجعات النقدية ضرورة قصوى لدى الباحثين لإجراء مراجعة شاملة للتاريخ القديم برمته لمنطقة جنوب بلاد الشام، وهذا ما أدى إلى ظهور توجه جوهري لدى الباحثين في الفهم النقدي للمصادر التاريخية والأثرية المعاصرة المستندة إلى أدلة متجذرة، وعدم الأخذ بمسلمات التفسيرات المستندة إلى الافتراضات التقليدية الأصولية، والتي غالبًا ما تتسم بالتعصب للآثار التوراتية، وتهدف إلى تقديم الدعم النشط للدعاية الصهيونية ذات الدوافع السياسية. لقد تبنى هذا التوجه النقدي بعض العلماء والباحثين الغربيين، ومن أشهرهم توماس تومبسون *(Thomas Thompson)*، وروبرت كوت *(Robert Coat)*، وكيث وايتلام (Keith Whitelam)، ووليم ديفر (William Dever) ، واعتمدوا هذا التوجه النقدي الذي يقوم على استبعاد علم الآثار التوراتي الاولبرايتي عن البحث التاريخي والأثري، والوصول إلى تاريخ لمنطقة بلاد الشام يستند إلى علم آثار محايد، وتحديد المشهد الخاص بتاريخ فلسطين القديم بعيدًا عن الرواية التوراتية ذات الطابع الأسطوري. لقد تمخض عن النقاش والجدل الكبيرين الذين تصاعدا في التسعينيات من القرن الماضي حول تلك المراجعات النقدية والفكرية، إصدار مجموعة من الكتب الشهيرة في تلك الفترة، كنتاج للتحول الفكري نحو اعتماد مناهج نقدية مكتوبة، ومن أشهرها كتاب "الكنعانيون وأرضهم: التقاليد الكنعانية"، الصادر عام 1991 لمؤلفه نيلز بيتر ليمخي Niels Lemche،

وكتاب "التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي"، الصادر عام 1992 لمؤلفه توماس تومبسون (Thomas Thompson)، وكتاب "اختلاق إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني"، الصادر عام 1996 لمؤلفه كيث وايتلام (Keith Whitelam)، إذ ساهم تصاعد الجدل الفكري الذي رافق صدور هذه الكتب ظهور الملامح الأولى لمدرسة فكرية جديدة أطلق عليها اسم مدرسة الحد الأدنى أو المقللين (Minimalist) (كفاف، 2011، 35–36؛ تومبسون ويلم، 2019، 15).

ويمكن عرض أهم الآراء النقدية التي طرحها بعض رواد مدرسة الحد الأدنى لفهم المنهج النقدي الذي استخدمه أولئك الرواد في نقد الرواية التوراتية. ينقض توماس تومبسون *Thompson Thomas* في كتابه "التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي" منهجية وليم أولبرايت William *Albright* بالانتقال الشفهي للتدوين، وذلك فيما يخص المرويات التوراتية. ويضيف أن أولبرايت قد اعتمد بموجب تلك المنهجية قائمة فرضيات أعدها مسبقًا، استخدمت للتوفيق بين المرويات التوراتية والبيانات التاريخية غير التوراتية لتاريخ فلسطين القديم. إن ذلك المنهج أدى إلى التوصل إلى استنتاجات تاريخية موجهة مسبقًا، وهو ما يمكن اعتباره تحيزًا لا يتوافق مع المعايير العلمية. لقد أسس أولبرايت منهجيته على مبدأ دمج إسرائيل وتاريخها القديم في الإطار العام لتاريخ المشرق القديم، وفلسطين بشكل خاص، وتلك المنهجية ساعدته في تأويل وتفسير العديد من المكتشفات الأثرية المعقدة وغير المترابطة (تومبسون، 1995، 18).

فند تومبسون فرضيات أولبرايت وتفسيراته حول غزو الإسرائيليين للمدن الكنعانية وتدميرها وإبادة الكنعانيين. ويضيف تومبسون في إطار ذلك التفنيد أن مفهوم أولبرايت للتاريخ هو مفهوم سطحي وغير عميق، ويفتقر إلى منهج واضح في التحليل والتحقيق، إذ أضاع كل جهوده في محاولات التوفيق الخاصة بالمرويات التوراتية مع غيرها من المصادر التاريخية دون جدوى، الأمر الذي وسم دراساته بالتناقض، خاصة في الفترة الأخيرة من حياته (تومبسون، 1995، 19).

أما كيث وايتلام Whitelam Keith ، فقد استعرض في كتابه "اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني" الأفكار الأصولية والمتطرفة لرواد الفكر التوراتي، وعلى رأسهم وليم أولبرايت William *Albright*، حيث يوضح وايتلام كيفية اختلاق إسرائيل القديمة على حساب التاريخ الفلسطيني الحقيقي، دون أي أساس علمي لدراساتهم وأبحاثهم. ويضيف، بأنهم استخدموا منهجًا عنصريًّا لخلق إسرائيل المقدسة والمتميزة بكل الطهارة والنقاء، وسط عالم وصفوه بأقسى الأوصاف المتدنية والسلبية، والمتمثلة بالسكان الكنعانيين وديانتهم الوثنية، واعتمادهم عناصر وطقوس جنسية توحي بانحطاط تلك الثقافة التي سادت في فلسطين قبل ظهور إسرائيل المخلّصة. ويتطرق وايتلام إلى نظرية الغزو والإبادة التي وضعها أولبرايت أساساً علمياً لقيام إسرائيل القديمة، إذ غزا الإسرائيليون أرض كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأبادوا سكانها الكنعانيين، وأنهوا ثقافتهم المتدنية، وأقاموا مملكة قوية تتميز بالقيم الأخلاقية العالية. ويشرح وايتلام كيف أن أولبرايت استخدم مبررات عنصرية وغير أخلاقية أباح من خلالها إبادة الكنعانيين. واقتبس وايتلام عبارات منشورة لأولبرايت حول تلك التبريرات العنصرية التي أسقطها على قيام المستوطنين الأوروبيين الأوائل في أمريكا الشمالية، وأحقيتهم في إبادة السكان الأصليين هناك استناداً إلى تفوقهم العرقي وسمو أخلاقهم ورفعتها (وايتلام، 1999، 124–148).

شملت حركة التجديد الفكري تلك باحثين مستقلين معاصرين اعتمدوا المعايير العلمية الحديثة أساسًا لبناء قراءات محايدة للتاريخ الفلسطيني القديم، ومن ضمنهم المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند Sand Shlomo، الذي أصدر كتاباً بعنوان (اختراع الشعب اليهودي)، وأثار جدلاً واسعًا في الأوساط الصهيونية. يوضح ساند أنه بعد احتلال الضفة الغربية من قبل إسرائيل عام 1967، نشطت بشكل مفرط التنقيبات الأثرية الإسرائيلية وغيرها في معظم المواقع الأثرية التي تعود للعصر الحديدي وما قبله في الضفة الغربية المحتلة، باعتبارها المسرح الجغرافي الرئيسي لأحداث التاريخ الإسرائيلي المفترض، بهدف ترسيخ وتعزيز نتائج ودراسات مدرسة علم الآثار

التوراتي. إلا أن الصدمة كانت صاعقة لكل أولئك المنقبين الصهيونيين، سواء أكانوا إسرائيليين أو غيرهم، فالنتائج الحديثة بعد عام 67 أدت إلى سقوط العديد من المبادئ الأولية لمرويات العهد القديم، وبالتالي إن كل ما روجت له مدرسة علم الآثار التوراتي، وعلى رأسها وليم أولبرايت، لم يعد مقبولاً علميًا ومنطقيًا. يؤكد ساند أن الباحثين المجددين، خاصة الإسرائيليين منهم، اعتمدوا بشكل أكبر على منهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ومسح المناطق الأثرية، وفحص ظروف الحياة ووسائل الإنتاج أو الطقوس في المناطق الرحبة، وغيرها من الأدوات، مما أدى إلى التوصل إلى نتائج ونظريات جديدة توضح حقيقة ما حدث في العصر الحديدي، ومثال ذلك أن الاستيطان في الجبال الوسطى والجنوبية من الضفة الغربية المحتلة، والمعروفة باسم يهودا والسامرة، قد حدث مع بداية العصر الحديدي من قبل نفس المجموعة السكانية الكنعانية، ولكن بملامح رعوية، وقد تطور استيطانهم في الجبال الوسطى والجنوبية وصولًا إلى إقامة مستوطنات زراعية مستقرة في تلك المناطق، لتصبح نواةً لتأسيس مملكتي السامرة (إسرائيل) ويهودا، وبالتالي فإن تأسيس يهودا والسامرة جاء على يد مجموعة كنعانية محلية وليس نتيجة استيطان إسرائيلي عبراني أجنبي. وتلك المملكتان تطورتا مع الوقت، وقادتا الاستقلال الكنعاني عن مصر في الفترة ما بين القرن الثاني عشر والقرن العاشر قبل الميلاد. ويضيف ساند أن كل المخلفات الأثرية من منطقة يهودا والسامرة تحمل نفس السمات الكنعانية للمخلفات الأثرية في المناطق المجاورة في فلسطين، باستثناء عظام الخنزير التي لم توجد لدى المستوطنين الكنعانيين الجدد في يهودا والسامرة، والذي يدعي التوراتيون بأن ذلك دليل قاطع على أن أولئك المستوطنين هم ذوو خلفية دينية وعرقية مختلقة عن الكنعانيين، وبالتالي هم الإسرائيليون. وينقض ساند ذلك الادعاء مؤكدًا أن ذلك لا يعد دليلًا ماديًا قاطعًا على أن أولئك المستوطنين هم الإسرائيليون (ساند، 2010، 158–161).

أما مملكة إسرائيل الموحدة والعظيمة والممتدة من نهر الفرات إلى تخوم مصر، وعاصمتها أورشليم (القدس) البديعة، وتلك القصور والمباني العظيمة التي شيدها سليمان رمزًا لعظمة تلك المملكة، والتي شكلت العصر الذهبي للشعب اليهودي على مر العصور، وألهمت ذاكرته القومية، وكتبت المؤلفات والقصائد والأشعار تغزلاً بشاؤول الطويل، وداود الشجاع، وسليمان الحكيم، فيؤكد ساند أن كل تلك الروايات قد سقطت سقوطاً مدويًا مع نتائج التنقيبات الأثرية الحديثة، خاصة في مدينة القدس، في سبعينيات القرن الماضي، والتي أكدت دون أدنى شك عدم إمكانية قيام تلك المملكة الكبرى في القرن الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد حسب المرويات التوراتية، فلم يكتشف أي آثار لبناء عظيم أو أسوار وقصور عظيمة، حتى الأواني الخزفية المكتشفة كانت قليلة وبسيطة جداً. إن الاكتشافات الأثرية الحديثة قد شكلت صدمة كبيرة للتوراتيين حول روايات العهد القديم التي تتعلق بتلك المملكة القومية الموحدة. فالتنقيبات الأثرية الحديثة وضحت أن المكتشفات الأثرية القديمة، والتي أشارت إلى مدينة الملك الحكيم سليمان في حاصور (تل القدح) واسطبلات خيوله وبواباته في مجدو (تل المتسلم) وغيرها من المكتشفات غير دقيقة، وأن الأبنية المكتشفة تعود لمرحلة لاحقة للمملكة الموحدة المفترضة، وهي قريبة من حيث نمط البناء لأبنية مملكة السامرة في القرن التاسع قبل الميلاد، وإن اعتماد التقنية المعاصرة والحديثة للكشف الأثري بواسطة الكربون 14 وضحت بأن الأبنية الضخمة والعظيمة في المنطقة الشمالية شيدت من قبل مملكة السامرة، وليس من قبل الملك سليمان الحكيم، وكان هذا الاستنتاج المؤلم قد شكل علامة فارقة في مصداقية علم الآثار التوراتي، وسقوط تلك الصورة الأسطورية للملك الحكيم وإمبراطوريته. وطرحت التفسيرات المنطقية التي تشير إلى أن منطقة يهودا في ذلك الوقت تكونت من وجود قبلي محدود في القدس، أفرز سلالة حاكمة محلية تحت اسم آل داود، وهو ما أكدته كسرات دان المكتشفة عام 1993م من موقع دان (تل القاضي) في شمال فلسطين. ويوضح ساند أن مملكة السامرة في الشمال كانت أكثر تطورًا اقتصاديًا وسكانيًا من مملكة يهودا، ويشير إلى أن بعض مراسلات تل العمارنة وضحت في وقت مبكر أن هناك عاصمتين محليتين كنعانيتين في منطقة الجبال الوسطى والجنوبية من فلسطين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إحداهما في الشمال وهي شكيم (تل بلاطة – نابلس)، وأخرى في الجنوب وهي اورسالم

(القدس). وفي تتبع ساند لمسار مملكتي السامرة ويهودا وتطورهما، وصولا إلى فنائهما، السامرة في القرن الثامن قبل الميلاد على يد الآشوريين، ويهودا في القرن السادس قبل الميلاد على يد البابليين، فإنه يخلص إلى أن مؤلفي وكتبة العهد القديم، والمتأخرين زمنيا بوقت طويل عن تلك الأحداث، هم من اخترعوا تلك الأحداث التوراتية، ومن ضمنها تلك المملكة الموحدة، ورسموها في مخيلتهم كهوية رسمية مشتركة ذات إله واحد، كما وأن هذه الأساطير المخترعة قد ساهمت فيما بعد بخلق تاريخ سياسي استخدم في صياغة وتشكيل الهوية القومية اليهودية؛ لتبرير ودعم المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني في فلسطين (ساند، 2010، 161–164).

تعد حفريات عالمة الآثار الانجليزية كاثلين كنيون (Kenyon Kathleen) من أشهر أعمال التنقيب في فلسطين، حيث نقبت في أريحا، خلال المواسم 1952–1958م كما ذكر سابقًا، والقدس لمواسم 1961–1967م، واتسمت نتائج تلك التنقيبات بقدر عال من الموضوعية، والتي جاءت في سياق استخدامها للمنهج العلمي المحايد والمذكور سابقاً، حيث خالفت تلك النتائج ما تطرحه مدرسة علم الآثار التوراتي. فقد أكدت كنيون في كتابها "الكتاب المقدس والحفريات الحديثة" والصادر عام 1978م، بأن الآثار المنقبة في أريحا والقدس لا يمكن أن تعطي أية مؤشرات محددة وقاطعة فيما تطرحه المرويات التوراتية. أما فيما يتعلق بأورشليم السليمانية، فتوضح كنيون أن المواقع الأثرية في القدس والتي تم التنقيب بها، لا توفر مصادر قوية أو قاطعة لما تطرحه الرواية التوراتية حول العاصمة الكبرى أورشليم. وتضيف كنيون أنه لم يتم العثور على أية مخلفات أثرية إسرائيلية داخل حدود السور القديم، وأن تلك المنطقة المحددة قد تعرضت لدمار وانهيارات كبيرة على مر العصور، ومن الاستحالة بمكان العثور على أية مخلفات تعود لأورشليم. وأن المخلفات الوحيدة المتوفرة تشير إلى تلك الأبنية والهياكل من فترة الملك هيرودوس الكبير (كينيون، 1978، 43، 50، 52).

وفي إطار حركة النقد التاريخي والأثري للمرويات التوراتية وتفسيراتها، فقد تم نقد الكثير من الأحداث التاريخية الواردة في تلك المرويات، وعدم إمكانية توافقها مع التسلسل الزمني التاريخي المعتمد والمخلفات الأثرية المكتشفة، ومثال ذلك، فإن سفر الملوك يذكر العلاقة الطيبة بين الملك سليمان والملك حيران في صور وصيدا، والتاريخ التوراتي المفترض لتلك العلاقة والتحالف هو القرن العاشر قبل الميلاد، ومع دراسة البيانات التاريخية والأثرية لتلك المنطقة في ذلك التاريخ، فهي تظهر عدم وجود ملك باسم حيران في تلك الفترة. ويذكر سفر الملوك أيضًا علاقة المصاهرة بين فرعون مصر سيامون، والذي زوج ابنته للملك سليمان، فإن النصوص المصرية من عصر الفرعون سيامون لم تذكر علاقة المصاهرة تلك. كما أن الفرعون ششنق الذي خلف الفرعون سيامون، وحسب سفر الملوك، كان عدوا للملك سليمان، حيث قام بحملة ضخمة على يهودا واورشاليم (القدس)، وأخذ كنوزها بعد وفاة الملك سليمان، إلا أن سجلات حملة ششنق على آسيا لم تذكر مدينة اورشاليم (القدس) ولا أي مدينة أخرى في منطقة يهودا. كما أن السجلات الآشورية للممالك المهمة في بلاد كنعان في فترة القرن العاشر قبل الميلاد، لم تذكر وجود أي مملكة قوية في فلسطين وفق ما ذكره سفر الملوك والنصوص التوراتية الأخرى، كما لم تذكر ذلك الملك العظيم الذي أخضع الملوك شرقا وغربا واسمه سليمان. إن تلك النتائج الحاسمة لبعض أمثلة النقد التاريخي والأثري للمرويات التوراتية، قد خلصت إلى فرضيتين وحيدتين، إما أن التاريخ برمته تآمر على الملك سليمان ومملكته العظمى ولم يذكرها، أو أن ذلك الملك وتلك المملكة كانت في مخيلة محرري التوراة وأسفارها فقط، ولم يكن لها وجود أصلًا على أرض الواقع (السواح، 2002، 148).

إن أقدم سجلات المؤرخين، وعلى رأسها المؤرخ الإغريقي هيرودوت *Herodotus* في كتابه الشهير (تاريخ هيرودوت) والذي يعود للقرن الخامس قبل الميلاد، أشار إلى فلسطين وسكانها ضمن جولاته، ولم يذكر أية كلمة أو إشارة تتعلق بيهودا أو إسرائيل أو الإسرائيليين. ويبرر الباحثون التوراتيون ذلك بأن هيرودوت ركز على المناطق الرئيسية في فلسطين، واعتمد على كلام الأدلاء الذين رافقوه في

جولاته، في حين كان رد الباحثين المجددين على هذا التبرير الهزيل أن هيرودوت لا يمكنه تجاوز ذكر مملكة داود وسليمان، باعتبار أن المطروح مملكة ضخمة أسسها داود وسليمان في المشرق القديم، ولا يمكن المرور على ذكر فلسطين دون ذكرها أو ذكر أورشليم (القدس) أو إسرائيل أو يهودا، أو أي مما هو وارد في المرويات التوراتية (منى، 2000، 74 – 75).

تتابع حركة النقد التاريخي والأثري توضيح العديد من الحقائق التاريخية المثبتة حول فلسطين وتاريخها القديم، وتناقضها مع المرويات التوراتية، خاصة فيما يتعلق بانقسام المملكة الموحدة إلى مملكة الشمال (السامرة)، ومملكة الجنوب (يهودا)، إذ إن القاعدة السكانية والاقتصادية لمملكة الشمال (السامرة) لم تتوفر في منطقة الجبال الوسطى من فلسطين، إلا في القرن التاسع قبل الميلاد، بعد بناء مدينة السامرة، وليس قبل ذلك بقرنين كما تدعي الرواية التوراتية. وينطبق الحال على مملكة يهودا في الجنوب، إذ إن نفس الشروط من حيث القاعدة السكانية والاقتصادية لم تتوفر لتشكيل مملكة يهودا وبقيادة أورشليم (القدس)، إلا بعد القرن الثامن قبل الميلاد. وبالتالي فإن ادعاء إنشاء المملكة الإسرائيلية الموحدة في القرن العاشر قبل الميلاد لم تتوفر له أية مقومات سكانية واقتصادية وسياسية، ولم تتشكل تلك الدولة الإقليمية الكبرى في القرن العاشر قبل الميلاد، فضلًا عن أن ظهور السامرة ويهودا لم يتوافقا زمنيًّا، فالأولى في القرن التاسع قبل الميلاد، والثانية في القرن الثامن قبل الميلاد، وهناك فرق زمني بين قيام المملكتين يقدر بأكثر من مئة عام. وفي ضوء المكتشفات الأثرية من القدس، فإن أورشليم (القدس) القرن العاشر قبل الميلاد لم تشكل مدينة كبرى، بل على العكس من ذلك، فقد كانت بلدة صغيرة لم يتجاوز سكانها الألفي نسمة في أقصى تقدير، ومساحتها محدودة جدا(السواح، 2002، 157).

أما فيما يتعلق بسكان مملكتي السامرة ويهودا، فلا يمكن ربطهما باليهودية التي جاءت بعدهما بوقت طويل، فلا السامريون، أبناء مملكة السامرة، ولا اليهوديون أبناء مملكة يهودا، يمكن اعتبارهم يهودا، فهم جزء من التركيبة السكانية المحلية لفلسطين، ولا ينتمون لعرق واحد أجنبي ممتد من المملكة الموحدة، وصولاً لفترة الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كما ورد في النصوص التوراتية (تومبسون ويلم، 2019، 28–30).

لقد أكدت التنقيبات الأثرية الحديثة في مواقع العصر الحديدي، مثل موقع عزبة سرته وشيلوه وغيرها، في الضفة الغربية المحتلة، أن ملامح الثقافة المادية قد استمرت من العصر البرونزي المتأخر وحتى العصر الحديدي، وكان ذلك واضحاً من خلال المخلفات الأثرية، خاصة الفخار، وأن تطور الثقافة المادية في فلسطين كان تطوراً محلياً داخليًّا من نفس نسيج الثقافة المادية الكنعانية، ولم يكن خارجيًّا بأي حال من الأحوال، الأمر الذي أكد بطلان وصف العصر الحديدي بأنه عصر إسرائيلي، وأن العصر البرونزي المتأخر عصر كنعاني، وأن تلك النتائج الحاسمة أبطلت ذلك الجدل التوراتي الداخلي حول تبريرات قيام إسرائيل القديمة وأصولها، سواء تلك المتعلقة بنظريات الغزو، أو التسلل السلمي أو الثورة الفلاحية وغيرها. كل تلك النظريات سقطت أمام تلك المكتشفات الأثرية الحديثة. ولتوضيح ذلك، يمكن الاستعانة بمثال حي بالمخلفات الأثرية العمرانية المكتشفة في موقع شيلوه، حيث أظهرت تلك المخلفات بقايا مبان متدرجة، ادعى التوراتيون أنها تمثل معبدًا أو مركزًا مقدسًا للإسرائيليين القدامى، وأن شيلوه كانت مركزًا دينيًّا إسرائيليًّا رئيسيًّا، حسب سفر صموئيل الأول. وبعد تدقيق تلك المخلفات، واستخدام استراتيجيات البحث الجديدة، تأكد عدم توفر أي أدلة تثبت ذلك الادعاء التوراتي حول تلك المخلفات العمرانية، وأنها لم تشكل أي مركز ديني أو معبد، وإنما جاءت في سياق المباني التي شيدها الكنعانيون المحليون في هذه الفترة (وايتلام، 1999، 261–263).

لقد انهارت مصداقية مرويات العهد القديم فيما يتعلق بإمبراطورية داود وسليمان المجيدة، وغيرها من الأحداث المسجلة في التاريخ التوراتي المزعوم، وذلك بناء على نتائج التنقيبات الأثرية الحديثة، وإعادة قراءة تلك المكتشفات الأثرية التي أدت إلى تلك النتيجة

الحاسمة، فاكتشاف كسرات دان (تل القاضي) والمذكورة سابقا، والتي اعتمد عليها التوراتيون كدليل قاطع على وجود مملكة موحدة، أكدت عكس ذلك الادعاء التوراتي، عندما تمت قراءتها في سياقها التاريخي والأثري الصحيح، فضلاً عما أكدته المخلفات العمرانية العظيمة من مجدو (تل المتسلم) وحاصرو (تل القدح) وجازر (تل أبو شوشة) وغيرها من المواقع الفلسطينية تعود لسلالة العمريين في السامرة، وليس لعهد سليمان المملكة الموحدة، وغيرها الكثير من المكتشفات التي تؤكد النتيجة الحاسمة التي توصل إليها الباحثون المجددون، وعلى إثر تلك النتائج، دار جدل وصراع كبير بين الباحثين المجددين والباحثين التوراتيين، إذ وجهت الاتهامات من كلا الطرفين، الأول، بمعاداة السامية والصهيونية، والثاني، بالتحريف والإنجيلية والمبالغة. إن هذه الاكتشافات أضعفت الروايات التوراتية كمصادر تاريخية موثوقة، وشككت في النتائج الكثيرة التي راجت وانتشرت حتى ثمانينيات القرن الماضي، والتي ادعت بتاريخية الكتاب المقدس العبري. وعلى إثر ذلك، لم يعد مقبولاً أو شرعياً البحث في هذه المصادر غير التاريخية، وحتى وثائق قمران البحر الميت أكدت قطعياً عدم وجود كتاب مقدس عبري في تلك الفترة. وبذلك توسعت دائرة الباحثين المجددين لتشمل العديد من علماء الآثار والمؤرخين الذين اعتمدوا مناهج أكثر علمية ومصداقية، بعد ثبوت انهيار وسقوط علم الآثار التوراتي (تومبسون ويلم، 2019، 50).

خامسًا: قراءات علمية للعصر الحديدي في فلسطين

انطلاقًا مما سبق في نقض الرواية التوراتية وسقوطها، فإنه يمكن الآن عرض قراءة تاريخية واقعية لأحداث العصر الحديدي، من منظور علمي محايد. والبداية من الكارثة البيئية والمناخية التي سادت معظم مناطق شرق المتوسط، بما فيها كنعان، مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي 1200 ق. م.، حيث أدت الكارثة البيئية والمناخية إلى انهيار اقتصادي واجتماعي شامل في تلك المنطقة، بما فيها فلسطين، مما اضطر العديد من السكان إلى النزوح والانتقال إلى مناطق أخرى أقل تأثرًا بالكارثة، وهجران بعض المدن والمواقع الفلسطينية، وتغيير نمط الثقافة والسلوك الاجتماعي والاقتصادي، إذ اتبع السكان في ظل الكارثة نمط زراعة الكفاف، ومن ضمنه الرعي، والاستيطان ضمن قرى وتجمعات جديدة في مختلف المناطق الفلسطينية، خاصة الجبال الوسطى والجنوبية. وتعود خلفية أولئك السكان إلى نفس النسيج الاجتماعي الكنعاني في فلسطين. اعتمد الكنعانيون في فلسطين نمطاً ثقافياً جديداً لمحاولة النجاة عن طريق التكيف والتأقلم مع واقع القحط والجفاف الذي فرضته عليهم الكارثة البيئية والمناخية، والتي استمرت حتى 1000 إلى 1050 ق. م.، وهي تعد النهاية الحقيقية لتلك الكارثة المدمرة، ونهاية ما يعرف بمرحلة العصر الحديدي الأولى (تومبسون، 1995، 280).

لقد أدت الكارثة البيئية إلى تغيير شامل في الواقع والجغرافيا السياسية للمشرق القديم مع العصر الحديدي الأول، حيث انهارت قوى وممالك ومدن وقامت أخرى على أطلالها. ففي الأناضول انهارت مملكة الحثيين(1)، كما انهارت أغلب الممالك الكنعانية الشمالية، ومن ضمنها أوغاريت وامورو وغيرها، وظهرت الممالك والثقافة الآرامية في تلك المنطقة، وأشهرها مملكة دمشق. أما الساحل الكنعاني، فقد ظهرت فيه الثقافة والممالك الفينيقية وأشهرها مملكة صور، وشهد المسرح الدولي بروز قوة جديدة صاعدة، وهم الآشوريون في شمال بلاد الرافدين، إذ سيطروا على معظم تلك المناطق، مع سقوط حكم الكاشيين في بابل(2). أما مصر، فقد تراجعت قوتها ونفوذها على المسرح الدولي، وتراجع دورها في العديد من المناطق، خاصة فلسطين (السواح، 2002، 106).

يتفق العديد من الباحثين على التقسيم الزمني لمرحلة الحديدي الأول، والممتدة من 1200 – 1000 ق. م.، ويرون أن هذه المرحلة شهدت نسبياً غموضاً وشحاً في المصادر التاريخية، وذهب بعضهم إلى تسمية تلك المرحلة بالعصر المظلم، ويعزون ذلك إلى شح المصادر والوثائق التاريخية، بسبب استخدام مواد كتابية قابلة للتحلل والاندثار (كفاف، 2011، 366 – 367). أما التقسيم الزمني

لمرحلة الحديدي الثاني، فيختلف الباحثون في تحديد نهايتها، فمنهم من يحددها من 1000 – 330 ق. م. ، وهي فترة الإسكندر المقدوني والحكم الإغريقي (كفاف،2011، 368 – 369) ، وآخرون يحددونها حتى 550 ق. م.، وهي بداية الحكم الفارسي تقريبًا (إبراهيم، 2010، 217). وظهر رأي آخر بامتداد تلك المرحلة إلى 586 ق. م. وذلك اعتماداً على بيانات الكربون المشع المعاير (نجاجرة، 2012، 84). وسيتم في هذا البحث اعتماد الرأي الأخير بتحديد 586 ق. م. نهايةً لمرحلة الحديدي الثاني، باعتباره تاريخًا يتعلق بحدث كبير، والذي تمثل في الاجتياح العسكري البابلي لمملكة يهودا الكنعانية في فلسطين، والذي سيتم التطرق إليه لاحقًا.

شهدت الفترة الأولى من مرحلة الحديدي الثاني من (1000 – 850 ق. م.)، أي حتى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، انحسار الكارثة البيئية وعودة المناخ إلى طبيعته المعتدلة، وزيادة في هطول الأمطار وتجدد خصوبة الأرض، إذ توصف هذه الفترة بالاستقرار والازدهار الاقتصادي، فقد ساهم الاعتدال المناخي في إعادة إحياء الزراعة وتطورها، وزيادة مفرطة في عدد السكان نتيجة الرخاء الاقتصادي الذي عاشته كنعان، خاصة فلسطين، في ظل نمو وازدهار التجارة الخارجية (تومبسون، 1995، 281).

لقد شهد العصر الحديدي، خاصة ما بعد الكارثة، تطوراً في سائر المجالات الحضارية في فلسطين وعموم بلاد كنعان. فقد توسعت العلاقات الخارجية، مما زاد من التفاعل الحضاري مع الأمم الأخرى، وهو ما تم رصده في المخلفات الأثرية نتيجة لهذا التفاعل، مثل العمارة والصناعة والتجارة. لقد انتشرت صناعة الحديد في فلسطين وباقي المناطق الكنعانية وغيرها، إذ أدى استخدام خامات الحديد في صنع المعدات والأدوات والأواني إلى حدوث ذلك التطور الكبير في مختلف الميادين. ومن ملامح ذلك التطور، استخدام مواد جديدة أكثر ابتكاراً للكتابة عليها، كورق البردي، والكسر الفخارية، والرقم الطينية. كما أن أبرز الإنجازات الحضارية للكنعانيين في هذا العصر قد تمثل في ظهور الأبجدية الفينيقية الكنعانية الجديدة المبتكرة، إذ انتشرت واعتمدت من قبل الكثير من المجموعات والأمم، وتحولت إلى أبجدية دولية، وأدت إلى تسهيل التواصل الحضاري والثقافي بين المجتمعات الإنسانية، مما انعكس بشكل إيجابي على ازدهار ونمو التجارة الدولية وغيرها (كفاف،2011، 367).

تعد الأبجدية الفينيقية تطوراً طبيعياً للأبجدية الكنعانية، فهي مشتقة عنها، وتتمثل في شكل خطوط الأحرف، والتي تبلورت في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وذلك النمط الخطي الجديد حل محل استخدام الأشكال الصورية. ومنذ ذلك الوقت بدأ استخدام الأبجدية الخطية المنتظمة التي تكتب من اليمين إلى اليسار، ليس في كنعان فقط ومن ضمنها فلسطين، بل في عموم مناطق حوض المتوسط. وقد انتشرت العديد من النقوش والنصوص الفينيقية في مختلف مناطق حوض المتوسط. وفي هذا السياق، فقد أجمع العديد من المختصين باللغات والكتابات القديمة على أن ما ادعاه الباحثون التوراتيون حول بعض النقوش، وأنها كتبت بالعبرية، كنقش جازر (تل أبو شوشة)، ونقش سلوان (حزقيا) في القدس، وجذاذات لخيش (تل الدوير) وغيرها الكثير، كلها كتبت بخطوط فينيقية كنعانية من مراحل العصر الحديدي المختلفة (حلايقة، 2024، 64، 117، 136، 150).

إن العصر الحديدي، خاصة المرحلة الثانية منه، شهد الكثير من التغيرات الثقافية والاجتماعية والتي كان مصدرها محليًا كنعانيًا من نسيج المجتمع الكنعاني في فلسطين وعموم بلاد كنعان، ولم يكن مصدر تلك التغييرات هو هجرات وغزوات أجنبية، كما روجت لها الروايات التوراتية، فهذه التغييرات أدت إلى خلق تطورات سياسية انبثق عنها نشوء عدة كيانات سياسية في فلسطين لم تكن موجودة قبل العصر الحديدي، مثل مملكتي السامرة ويهودا، واللتين تم تحريف سيرتهما لصالح الرواية التوراتية، إلا أنه لم تقتصر تلك الكيانات على هاتين المملكتين؛ إذ شهدت معظم مناطق فلسطين تأسيس كيانات أخرى تم تجاهلها تاريخياً، بسبب التشويه الذي فرضته الروايات التوراتية. ففي شرق الأردن استقرت المجموعات السكانية الكنعانية في مناطق الجبال الشرقية وغيرها، وأسست ممالك مرموقة لها مثل:

عمون ومؤاب، وفي الجنوب آدوم، وغيرها، وكلها ممالك كنعانية نمت وتطورت خلال العصـــر الحديدي، كنتيجة طبيعية لتطور الثقافة المحلية في تلك المناطق (إبراهيم، 2010، 224 – 225).

تعد مملكة الســامرة نموذجًا متطورًا عن دولة المدينة الكنعانية، والتي شــاعت في العصــر البرونزي المتأخر، ويمكن تســميتها بالدولة الإقليمية (المناطقية)، وتعود بداياتها الأولى حينما تركز الاســتيطان الجديد بعد الكارثة البيئية في منطقة الجبال الوســطى، فقد زاد عدد السكان فيها، وزاد النشاط الزراعي المعتمد على اقتصاد المحاصيل النقدية كالزيوت والخمور واللحوم والأخشاب، وأصبحت سلعاً أساسيةً للتبادل التجاري مع المناطق المجاورة كدمشــق وفينيقيا وغيرها، من خلال الطرق والممرات التجارية التي أُعيد النشــاط لها. ورافق ذلك التطور نهضــةٌ زراعيةٌ نوعيةٌ، فقد تمت تهيئة المنحدرات الجبلية، خاصــة الغربية منها، وبناء ما ســمي بالمصــاطب الزراعية، وبالتالي توفير مســاحةٍ إضــافيةٍ من الأراضــي الزراعية في تلك المنطقة، فضــلاً عن بناء خزانات جيرية لتوفير المياه لهذه المســاحات الزراعية الجديدة، والتي اســتثمرت في البســتنة وزراعة الأشــجار المثمرة. وادعى ســابقا الباحثون التوراتيون أن تلك الابتكارات الزراعية مصــدرها المستوطنون الإسرائيليون الأوائل، في حين ثبت أنها ابتكار كنعاني فلسطيني محلي. وكانت الذخيرة السكانية لهذا الاستيطان الجديد في الجبال الوسـطى مصـدرها الوافدون من السـكان المحليين الرعاة والمزارعين من المناطق المجاورة في فلسـطين. وتؤكد المخلفات الأثرية لأولئك المستوطنين الجدد انتماءهم لنفس الثقافة الكنعانية المحلية، والمستمرة من العصر البرونزي المتأخر. وقد بدأ المستوطنون الجدد في تلك الأراضـي بتكوين وحدةٍ ثقافية وجغرافيةٍ، وذلك مع بداية القرن التاسع قبل الميلاد. وفي هذا السياق، تم بناء مدينة السامرة (قرية ســبســطية حالياً 15 كلم شــمال غرب مدينة نابلس)، على يد الملك عمري، وأصــبحت عاصــمةً لإقليمٍ جغرافيٍ موحدٍ تلبيةً للحاجات السياسية والاقتصادية الآخذة بالتوسع والتطور، فالحاجة أصبحت ضرورية لإدارةٍ مركزيةٍ موحدةٍ لهذا الإقليم، ومتابعة شؤونه، خاصة فيما يتعلق بالتجارة الخارجية، إذ إن البُنى الســياســية القديمة والبدائية لم تعد تلبي متطلبات ذلك التطور النوعي لهذه الدولة الناشــئة (السواح، 2002، 204).

لقد ذكرت الســامرة وســيرة الملك عمري وابنه آخاب في عدة مصــادر تاريخية، وكان أبرزها نقش ميشــع المؤابي والســجلات الآشــورية للقرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، ورغم بروز جدل حول نقش ميشع وورود كلمة إسرائيل، إلا أن إسرائيل المذكورة في تلك المصادر ليست هي إسرائيل اليهودية والتي مثلت المملكة الموحدة حسب الادعاء التوراتي، إذ فندت تلك الرواية سابقاً. إن إسرائيل المقصودة في تلك المصادر هي مملكة عمري، والتي ظهرت في مرحلة الحديدي الثاني، وعُرفت بشكل كبير باسم بيت خومريا، أو كور خمري (أرض عمري)، كما أُطلق عليها اسم سيريلا في النقوش الآشورية الحديثة. إن مملكة السامرة (بيت عمري)، كانت أقرب ثقافياً وحضــارياً إلى جيرانها، أي الممالك الآرامية والفلستية والفينيقية، وقد تحالفت معها عندما اقتضت الحاجة لذلك (تومبسون ويلم، 2019، 76–77).

إن ســلالة الملك عمري الحاكمة في الســامرة، والتي ذُكر تاريخها وأوصــاف ملوكها في الوثائق الآشــورية، فُند الادعاء التوراتي ســابقًا بانتمائها لســلالة ملوك المملكة الموحدة في النصــوص التوراتية. إن مملكة الســامرة هي دولةٌ كنعانية محليةٌ أســسـها الملك عمري ســنة 880 ق.م واســتمرت لأقل من مائتي ســنة، وانتهت على يد الآشــوريين عام 721 ق.م ، زمن ســرجون الثاني (الســواح، 2002، ص 178)، وتحولت بعد ذلك إلى مقاطعةٍ آشــوريةٍ باسم ســامارينا، بعد أن بلغت مكانةً مرموقةً سياسياً واقتصــادياً على المسرح الدولي، إذ تذكر بعض المصــادر امتداد نفوذها في بعض الفترات لتشمل معظم فلسطين، من تل عراد قرب بئر السبع جنوباً، وحتى حاصــور (تل القدح) شمالاً، وضمت لها في وقت من الأوقات مناطق شرق الأردن (تومبسون ويلم، 2019، 52).

أما مملكة يهودا في الجنوب، فتتشابه ظروف نشأتها وتوسعها ومن ثم دمارها مع سابقتها مملكة السامرة، وهي كالسامرة دولة كنعانية محلية، وقد تعرضت لنفس التشويه والتزوير الذي ساقته الرواية التوراتية. فخلال فترة الكارثة البيئية الكبرى وانتشار القحط والمجاعة مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي، كانت منطقة يهودا شبه خاليةٍ من السكان ما بين أورسالم (القدس) في الشمال، وحبرون (الخليل) في الجنوب، وهي ما تسمى بمنطقة الجبال الجنوبية من فلسطين. وبعد انحسار الجفاف مع نهاية العصر الحديدي الأول، بدأت حركة الاستيطان بالنشوء، ولو بشكلٍ بطيءٍ ومتأخرٍ عن نظيره في الجبال الوسطى، والتي سُميت فيما بعد بمملكة السامرة. ومع حلول عصر الحديد الثاني، ازدادت وتيرة الاستيطان بشكلٍ كبيرٍ في منطقة يهودا، وتدلّل المكتشفات الأثرية أيضًا على أن المخلفات المادية لأولئك المستوطنين الجدد تؤكد انتماءهم للثقافة الكنعانية المحلية المستمرة من العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي الأول؛ وبالتالي فهم ينتمون إلى نفس النسيج الاجتماعي السائد في فلسطين، تماماً كما المستوطنين الجدد في السامرة، فإن أصل المستوطنين الجدد في يهودا هو من نفس المصادر تقريبًا؛ فهم من المزارعين والرعاة المحليين من المناطق المجاورة ليهودا، خاصة السهوب الشرقية والجنوبية. فالتطور الزراعي وتحول يهودا من اقتصاد الرعي إلى اقتصاد القرية الزراعية، وما رافقه من انتعاش اقتصاديٍ متنامٍ، والذي حصل بعد انتهاء الجفاف والقحط، وكما حصل في مملكة السامرة في الشمال أيضا؛ كان عاملاً حاسمًا لتكثيف وزيادة السكان في منطقة يهودا، وبداية إعمارها وازدهارها في مراحل لاحقة (السواح، 2002، 237).

عاشت يهودا مرحلة نمو وتطور تدريجي في مختلف المجالات، ولكنه كان متأخراً عن نظريتها في الشمال في مملكة السامرة، إلا أن القفزة النوعية ليهودا حصلت في الربع الأخير من العصر الحديدي الثاني، حيث شُكّل كيان سياسي متنام ذو نفوذٍ، خاصةً بعد دمار السامرة ولخيش (تل الدوير) ومدنٍ أخرى على يد الآشوريين مع نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، ونزوح سكانها إلى أورسالم (القدس) ويهودا، حيث تشكلت في أورسالم (القدس) نخبةٌ اجتماعيةٌ وسياسيةٌ مسيطرةٌ، مما أعطى صفة العاصمة لها. إن تطور مكانة يهودا، وبالأخص أورسالم (القدس) الدولية بناءً على زيادة ثروتها وحجم تجارتها ومصالحها قد جعل تلك المملكة الصاعدة تحتل مكاناً متقدماً على المسرح الإقليمي في تلك الفترة (السواح، 2002، 181 – 182).

تحالفت أورسالم (القدس) مع آشور ضد مملكتي دمشق والسامرة وباقي الممالك الفلستية؛ رغبةً في أن يُفضي هذا التحالف إلى زيادة نفوذها وقوتها، وهو ما جنته مباشرةً بعد دمار مملكة السامرة، وتحولها إلى دولة فاعلة في الإقليم، إذ أُضيفت إلى أراضيها المناطق الغربية منها، والتي احتوت على مراكز منافسةٍ لها سابقًا من أمثال جازر (تل أبو شوشة) ولخيش (تل الدوير)، كما ضُمت إليها المناطق الجنوبية من حبرون (الخليل) وحتى بئر السبع. ونتيجةً لزيادة مساحة أورسالم (القدس) ومملكة يهودا ودمار مملكتي دمشق والسامرة؛ أصبحت تسيطر على الطرق التجارية؛ الأمر الذي زاد من ثروتها ومكانتها السياسية؛ وزاد من تطلّعها نحو الاستقلال عن آشور أو فكّ التحالف معها. وتولى عرش مملكة يهودا سلالة حاكمة محلية تنتمي للنخبة السياسية والاجتماعية في أورسالم (القدس)، وكانت تلك السلالة طموحة لإعلان استقلال يهودا عن آشور، بدعم وتحريض من مصر، ودخلت في تمرد وصراع مع الحكم الآشوري، انتهى بغزو الآشوريين بقيادة سنحاريب ليهودا عام (701 ق. م.)، وإعادة إخضاعها مرة أخرى، بعد تدمير العديد من مدنها وتحديد مساحتها (السواح، 2002، 253 – 257؛ تومبسون ويلم، 2019، 76–77).

وبتوالي الأحداث، فقد خضعت يهودا لحكم بابل بعد سقوط آشور، واستمر الصراع بينها وبين ملوك بابل الجدد، مستفيدةً من الدعم المصري لها ضد بابل، إذ وصلت تلك الصراعات إلى حد إعلان أورسالم (القدس) التمرد على بابل. وعلى إثر ذلك، قام نبوخذ نصر ملك بابل بالهجوم على يهودا وعاصمتها أورسالم (القدس) ، وتدمير المدينة وسبي نخبتها الحاكمة ومجموعة محدودة من سكانها عام

586ق.م، (السواح، 2002، 264 – 265)، وليس كما روجت الرواية التوراتية بأنه كان سبياً شاملاً لمعظم سكان يهودا، وأن التقديرات بأن أكثر من 75% من سكان يهودا بقوا في مدنهم وقراهم، خاصة في المناطق الريفية (فنكلشتاين وسلبرمان، 2007، 364–367). وتعد نهاية أورسالم (القدس) ويهودا هي النهاية الفعلية للعصر الحديدي برمته.

أما الفلستيون، وهم مجموعة من شعوب البحر، والتي تحدثت عنهم الأدبيات والدراسات الكلاسيكية والتوراتية، فقد اختلف الكثير من العلماء والباحثين في التاريخ والآثار حول ماهية هذه المجموعة وأصولها، وقد دار جدل محتدم بشأنها، فهناك عدة فرضيات لأصول تلك المجموعة، فمنهم من يعتقد بأنهم من شعوب البحر الذين ينتمون إلى منطقة الجزر الإيجية، وخاصة جزيرة كريت، وأنهم قاموا بغزو فلسطين مع بداية العصر الحديدي، وهذه الفرضية أكثر من روج لها الباحثون التوراتيون، وهناك من تبنى فرضية أن الفلستيين هم من سكان فلسطين أصلا، وامتزجوا بشعوب البحر الذين أثروا في ثقافتهم، وأدخلوا عليها مواد وعادات جديدة أصبحت متميزة في العديد من مواقع الساحل الفلسطيني الجنوبية (إبراهيم، 2010، 219). وفرضيات أخرى، منها فرضية الأصل الأناضولي، حيث أن موطنهم الأصلي يقع في المنطقة الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى (طه، 1999، 196 – 197). وهناك فرضية أخرى تفيد بأن بعض المجموعات الكنعانية التي هاجرت إلى جزر المتوسط، قد دخلت في صراعات مع الأقوام الأوروبية، مما دعاهم للعودة مرة أخرى إلى موطنهم الأصلي في فلسطين، وسموا حين عودتهم بالفلستيين (عبابنة، 2003، 23 – 24). وهناك عدة مصادر تاريخية ذكرت الفلستيين، منها الوثائق الآشورية والتي ذكرتهم في صيغتين متقاربتين باسم بِلِسْتو (Pilistu) وبَلَسْتو (Palastu). تعد النصوص المصرية من عصر رمسيس الثالث من أهم المصادر التي تحدثت عن الفلستيين وشعوب البحر في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إذ ذكروا ضمن وصف للمعركة بين رمسيس الثالث وهذه المجموعات في نقوش المعبد الكبير في مدينة هايو. كما وردت بعض الإشارات التاريخية للفلستيين في بردية هاريس، والتي تعود لنفس الفترة تقريبا. كما ذكر الفلستيون بشكل عابر في قائمة أسماء أمتربي، في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وفي قصة ون– أمون التي تعود للقرن الحادي عشر قبل الميلاد، وردت إشارات هامة حول الفلستيين دون أن تذكرهم بالاسم (إبراهيم، 2010، ص 220 ؛ طه، 1999، 191 – 194). لا تتوفر دلائل أثرية حاسمة توضح الانتماء العرقي للفلستيين، مع التأكيد على أن معظم المخلفات الأثرية من المواقع الفلستية في الساحل الجنوبي لفلسطين تشير إلى استمرارية الثقافة المادية الكنعانية من البرونزي المتأخر إلى الحديدي. إن أبرز المخلفات الأثرية للفلستيين التي يمكن التحدث عنها تقتصر على الفخار الفلستي، والذي اكتشف في أكثر من أربعين موقعا في فلسطين، مع تركزه في منطقة الساحل الجنوبي. حيث شمل الصحون والقصعات والجرار الكبيرة والصغيرة والقوارير والأواني الأسطوانية (طه، 1999، 197 – 199).

يرى توماس تومبسون *Thompson Thomas*، وهو من أبرز الباحثين المجددين، في كتابه الشهير (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي)، وفي إطار نقده للرواية التوراتية حول الفلستيين وشعوب البحر، بأن الفلستيين بالأصل ينتمون إلى النسيج المحلي الاجتماعي في فلسطين، ولم يأتوا من خارجه، وبالتالي، تفنيد الفرضية التوراتية بهجرة وغزو شعوب البحر الشامل لفلسطين، وأنه يمكن رصد بعض تأثيرات الثقافة المسينية الإيجية في منطقة الساحل الجنوبي وغيرها، إلا أن هذا التأثير المحدود يأتي في سياق التفاعل الحضاري السلمي الناتج عن انتقال بعض المجموعات المحدودة إلى الساحل الفلسطيني مباشرة، والاندماج الطوعي المسالم مع المجتمع الكنعاني الأصلي في فلسطين، وأن الثقافة المحلية الكنعانية هي من سادت في تلك المنطقة الجغرافية بشكل أساسي، وهو مؤكد حسب المخلفات الأثرية من تلك الفترة. وفي هذا السياق، يؤكد توماس تومبسون بأن فلستيا في الحقبة الآشورية هي تطور سياسي محلي فرضته الظروف القائمة في مرحلة العصر الحديدي، ومصدره الأساسي السكان الكنعانيون في الساحل الفلسطيني، إذ تعود أصول هذا الكيان لنهاية العصر البرونزي المتأخر، وينطبق عليه ما ذكر سابقا عن ممالك السامرة ويهودا وغيرها، فهي كيانات كنعانية محلية في

فلسطين. ويضيف تومبسون بأن الفخار الفلستي لا يمكن أن يكون دليلًا على غزو شعوب البحر، أو أنه ينتمي لإثنية أو عرقية أجنبية، وإنما نتاج تفاعل حضاري إيجابي سلمي بين مجموعة من الوافدين والسكان الأصليين في فلسطين (تومبسون، 1995، 93–100). إن فلستيا هي تعبير جغرافي أطلقه الآشوريون على منطقة الساحل الجنوبي من فلسطين، وهي لا تعبر بأي حال من الأحوال عن إثنية أو عرق محدد، وأن المرويات التوراتية اختلقت هذا الشعب الأجنبي الغازي والمسمى بالفلستيين، ووسمته بأسوأ الصفات؛ ليكون ندًّا لنقيضه النقي والمتمثل بالإسرائيليين القدامى، وأن حقيقة وجود هذا الشعب لا تستند إلى أي أساس علمي، وأن ما ذكر في الوثائق الآشورية لا يعبر عما ذكرته المرويات التوراتية (تومبسون، 1995، 186–187).

سادسًا: قراءات جديدة حاسمة لعلوم الجينات والهندسة الوراثية

إن مناهج النقد العلمية التي طرحها الباحثون المجددون، فضلًا عن تطور تقنيات التنقيب الأثري في السنوات الأخيرة، قدمت مجتمعة قراءات علمية نقدية للمرويات التوراتية، وصوبت العديد من المسائل التاريخية والأثرية فيما يتعلق بأحداث العصر الحديدي من تاريخ فلسطين القديم. إلا أنها وفي جوانب أخرى، لم تقدم قراءات حاسمة للكثير من القضايا، خاصة فيما يتعلق بأولئك الغزاة الأجانب، سواء كانوا شعوب البحر والفلستيين أو إسرائيليين عبرانيين، وما هو المصير الفعلي للكنعانيين، وكل ما طرحته تلك المدارس الفكرية هي افتراضات ومؤشرات غير حاسمة فيما يتعلق بتلك المجموعات. شهدت السنوات الأخيرة تطوراً ثورياً في مجال علم الأنساب الجيني والهندسة الوراثية، إذ قدمت تلك العلوم قراءات جديدة حاسمة لكل ما هو مثار جدل وافتراض غير محسوم يتعلق بتلك المجموعات الأجنبية، وبتاريخ فلسطين القديم برمته، الأمر الذي رسم لنا مشهداً نهائياً حاسماً لكل ما يتعلق بالعصر الحديدي وغيره من العصور.

أما فيما يتعلق بالفلستيين، ولتأكيد تفنيد الرواية التوراتية حولهم، وما روّج عن أصولهم وصفاتهم ونهايتهم، فقد حسمت الدراسة الجينية الشهيرة والتي أطلق عليها اسم "دراسة رفات مقبرة عسقلان" والصادرة عام 2019، وأشرف عليها فريق بحثي مكون من 9 باحثين بقيادة ميشيل فيلدمان، Michal Feldman ، وهم مختصون في علوم الجينات وهندستها، وعلم السكان الجيني، وينتمون إلى عدة معاهد علمية في الولايات المتحدة الأمريكية. قام فريق البحث بدراسة رفات عشرة أشخاص من مقبرة قديمة في عسقلان، والتي يعتقد أنها تعود للفلستيين القدامى في الفترة الزمنية من 1300–1110ق.م. ووضحت نتائج الدراسة أن عينات الحمض النووي لرفات أفراد مقبرة عسقلان تظهر بشكلٍ واضح سيطرة التركيب الجيني المحلي لمنطقة بلاد الشام، من العصر البرونزي، أي أنها مستمدة من الكنعانيين، مع تأكيد الدراسة على ظهور إشارة جينية أوروبية محدودة جدًّا لتدفق جيني مبكر في بداية العصر الحديدي، وسرعان ما تختفي لصالح جينات محلية كنعانية تعود لمنطقة جنوب بلاد الشام، وتستمر هذه التركيبة المحلية للفترة المقبلة للعصر الحديدي وما بعده (Feldman, 2019, 1-7). وقد أحدث صدور هذه الدراسة جدلًا واسعًا حول أصول الفلستيين القدامى، وعدم إثبات الادعاء حول أصولهم الأوروبية وقدومهم من كريت، ضمن موجات الهجرة الجماعية، وغزو شعوب البحر لمنطقة شرق المتوسط، وذلك حسب المرويات التوراتية. وقد شكلت هذه النتائج صدمة للمسؤولين الإسرائيليين، الذين قاموا باجتزاء نتائج الدراسة في محاولة منهم لإثبات صحة المرويات التوراتية، مما اضطر الفريق إلى نشر الدراسة ونتائجها كاملة، وقيام العديد من المختصين بتفصيل تلك النتائج وتلخيصها كما ذكر سابقًا، إذ فسروا هذه الإشارة الجينية الأوروبية المحدودة جدًّا التي ظهرت في بعض عينات الرفات، بأنها جاءت نتيجة لتفاعل حضاري طبيعي، وليس غزوًا أو اجتياحًا من قبل مجموعات أوروبية كبيرة، وبالتالي تؤكد تلك القراءة العلمية الحاسمة أن ذلك التردد الجيني الأوروبي المحدود لا يمكن أن يعبر عن غزو شامل، إذ إنه لو صحت الفرضيات التوراتية ستكون أغلبيه عينات الحمض النووي لأفراد مقبرة عسقلان تنتمي لتركيبة جينية أوروبية واضحة وسائدة في الرفات.

لقد سبق دراسة (رفات مقبرة عسقلان) دراسة جينية أخرى شهيرة باسم (دراسة صيدا)، وصدرت عام 2017، وقد أشرف عليها فريق من 16 باحثًا بقيادة مارك هابر Haber Marc، مختصون في علوم الجينات والإنسان والأحياء الحاسوبية، إذ قام الفريق بدراسة رفات خمسة أفراد كنعانيين وجدوا في مدينة صيدا اللبنانية، ويعود الرفات إلى فترة العصر البرونزي المتوسط حوالي 1700 ق. م ، وتؤكد نتائج الدراسة في سياق مقارنة عينات ذلك الرفات مع قاعدة البيانات الجينية للمنطقة، أن التكوين الجيني لسكان بلاد الشام في العصر الحديدي، في الساحل والداخل، كان مستمدّاً بنسبة 93% من التركيبة الجينية الكنعانية المحلية التي ينتمي إليها أولئك الكنعانيون الصيداويون الخمسة، والباقي (7%) من السهوب الأوراسية (مناطق الأناضول)، على الأغلب ممن عرفوا بالحثيين. كما توضح نتائج الدراسة أن المجموعات الثقافية المختلفة، التي ظهرت في العصر الحديدي، مثل المؤابيين والعمونيين والفينيقيين وغيرهم، كونوا هويات ثقافية مستقلة، لكنهم يعودون إلى جذور جينية كنعانية محلية. وقارنت الدراسة عينات 99 فرداً من اللبنانيين الحاليين مع عينات الكنعانيين الخمسة من مدينة صيدا، وتبين أن اللبنانيين الحاليين يستمدون معظم أصولهم الجينية من الكنعانيين، مما يؤكد الاستمرارية للتركيبة الجينية الكنعانية من العصر البرونزي المبكر، مروراً بالعصر الحديدي، وحتى الوقت الحاضر.(Haber et. al, 2017, 5-8).

ولتفسير التركيبة الجينية الأصلية للكنعانيين أنفسهم في بلاد الشام، أو كما عرفت سابقاً ببلاد كنعان، فإنه يمكن الاستناد إلى دراسة جينية بعنوان: "تأثير التركيب الجيني القديم من العصر الحجري النحاسي في إسرائيل على الاختلاط السكاني ودوره في التحول الثقافي"، والتي صدرت عام 2018، إذ تناولت بشكل تفصيلي متطور التركيب الجيني للكنعانيين، وأشرف عليها فريق متخصص من 12 باحثًا بقيادة Harney Éadaoin (اياداوين هارني)، ينتمون إلى عدة معاهد ومراكز علمية متخصصة في علوم الجينات والآثار والإنسان. قام فريق البحث بدراسة عينات الحمض النووي لرفات 22 شخصًا، وجدوا في كهف بالقرب من بلدة البقيعة في منطقة الجليل الأعلى شمال فلسطين، ويعود الرفات إلى الفترة من (4500–3900ق.م.)، أي العصر الحجري النحاسي، وبينت تلك العينات أن سكان جنوب بلاد الشام (فلسطين) في العصر النحاسي كانوا يستمدون 57% من جيناتهم من أسلافهم الفلاحين المحليين، والذين عرفوا بالنطوفيين، وذلك من العصر الحجري الحديث (النيوليتي)، و26% من جيناتهم مستمدة من الفلاحين الأناضوليين من العصر النحاسي، و17% مستمدة من فلاحي شمال بلاد الرافدين – زاغروس إيران، من العصر النحاسي. كما بينت نتائج الدراسة أن التكوين الجيني لسكان فلسطين في العصور البرونزية تشكل على النحو التالي: 58% مستمدة من جينات النطوفيين المحليين من العصر الحجري الحديث، وأكثر من 40% من سكان شمال بلاد الرافدين (جبال زاغروس – إيران) من العصر النحاسي، ونسبة قليلة أو لا شيء من أناضوليي العصر النحاسي. وأوضحت الدراسة ضمن نتائجها العامة أن هناك انسجاماً واستمرارية وراثية للتكوين الجيني لسكان جنوب بلاد الشام، رغم اعتماد ذلك التكوين على 3 مصادر وراثية وهي النطوفي المحلي (النسبة الأكبر)، والإيراني والأناضولي كمصادر ثانوية (Harney et. Al, 2018, 8-9). وبهذه النتائج تتوضح الصورة النهائية حول من هم الكنعانيون، فهم شعب ذو تركيبة جينية منسجمة وأصيلة، وأن أغلب جيناتهم وسماتهم الرئيسية مستمدة من أجدادهم النطوفيين، وهم السكان الأصليون لفلسطين وعموم بلاد الشام في العصر الحجري الحديث، وليس كما روجت الرواية التوراتية بأنهم مجموعات غير منسجمة ومختلطة الأعراق والشعوب.

وفي العودة إلى سياق استمرارية التركيبة الجينية الكنعانية في سكان بلاد الشام لما بعد العصر الحديدي، وحتى الوقت الحاضر، فيمكن الرجوع إلى عدة دراسات حول التركيبة الجينية الحالية لشعوب بلاد الشام المعاصرة، خاصة الفلسطينيين المعاصرين. ففي دراسة حول التنوع الجيني للمجموعات العربية، والتي صدرت عام 2018، بإشراف فريق بحث عربي متخصص في علم الوراثة البشرية وعلم المناعة، بقيادة الباحث التونسي عبد الحفيظ حجيج، اعتمد فيها فريق البحث منهجية تقسيم العالم العربي إلى أربع مجموعات رئيسية، وحدد معايير اختيار عينات الحمض النووي من تلك المجموعات العربية ومن مناطق أخرى مجاورة في كل من أوروبا وإفريقيا وآسيا.

وفيما يخص المجموعة الثالثة، والتي سمتهم الدراسة بعرب بلاد الشام، أكدت النتائج النهائية لتلك الدراسة أن كلاً من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين والأردنيين يرتبطون بعضهم ببعض بروابط جينية وثيقة ومنسجمة، وتختلف عن المجموعات الأخرى. وخلصت الدراسة أن ذلك الرباط الجيني الوثيق يعزى إلى الأصل المشترك المستمد من الكنعانيين القدامى، والذين ظهروا في بلاد الشام مع بداية العصر البرونزي المبكر (3300 ق.م) بعد انهيار الحضارة الغسولية في العصر الحجري النحاسي (Hajjej et al, 2018, 1, 16).

أما الدراسة الثانية، والتي تركز في بعض نتائجها الجانبية على الفلسطينيين المعاصرين، بعنوان "مجموعة الكروموسوم Y لدى اليهود كجزء من المشهد الجيني للشرق الأوسط"، والصادرة عام 2001، حيث قام فريق بحث متخصص في الأنثروبولوجيا الجينية وعلم الوراثة السكانية والبشرية، بقيادة الباحثة الإسرائيلية اريبلا اوبنهايم (Oppenheim Ariella)، إذ قام الفريق بتحليل عينات حمض نووي مستمدة من ست مجموعات سكانية من الشرق الأوسط، شملت الفلسطينيين، بما فيهم بدو النقب، حيث وضحت النتائج النهائية والخاصة بالفلسطينيين المعاصرين وبدو النقب، والتي اعتبرتهم الدراسة مجموعتين منفصلتين، أن بدو النقب والفلسطينيين المعاصرين مرتبطون بعضهم ببعض ارتباطا جينياً وثيقاً ومنسجماً، وهذه المجموعة تختلف جينيًا عن باقي مجموعات الشرق الأوسط المستهدفة في الدراسة. وتبين في الدراسة أن كروموسوم (Y) للفلسطينيين المعاصرين، بما فيهم بدو النقب، مستمد من سلالات جينية قديمة من سكان العصر الحجري الحديث في منطقة بلاد الشام، فضلاً عن التسلسلات الجينية التي جاءت بعد العصر الحجري الحديث Oppenheim, 2001, (1105-1104). وهذا ما يؤكد أن الفلسطينيين المعاصرين يعدون امتداداً طبيعياً وجينياً، ليس فقط للكنعانيين القدامى، بل لأجدادهم النطوفيين أيضًا، سكان بلاد الشام في العصر الحجري الحديث. وهو ما أكدته نتائج دراسة جينية أخرى حول الأصول الجينية لليهود الأشكناز والإيدش، حيث صدرت هذه الدراسة عام 2017، وأشرف عليها فريق بحث أمريكي بقيادة راناجيت داس (Ranajit Das). إذ يمكن تلخيص النتائج المحددة والخاصة بالفلسطينيين المعاصرين، بأن الفريق قام بتحليل عينات حمض نووي مأخوذة من رفات ستة أشخاص نطوفيين عاشوا في العصر الحجري الحديث في منطقة بلاد الشام، وجد بأن كروموسومات أولئك النطوفيين تجمعت بشكلٍ كبير في التركيبة الجينية للفلسطينيين المعاصرين (Das, et al. , 2017, 4).

ويستنتج مما سبق سقوط كل فرضيات الغزو والهجرة الأجنبية الشاملة لفلسطين مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي، وأن التركيب الجيني الكنعاني لسكان فلسطين وعموم بلاد الشام حافظ على استمراريته من العصور السابقة وخلال العصر الحديدي وحتى الوقت الحاضر. وأن كل المجموعات التي عرفت في العصر الحديدي، من الفينيقيين، والآراميين، والسامريين، واليهوديين، والفلستيين، وغيرهم الكثير، هي بالأصل مجموعات كنعانية محلية، لكنها طورت هويات ثقافية ولغوية فرعية في العصر الحديدي نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية التي فرضتها الكارثة البيئية والمناخية مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي في فلسطين وعموم كنعان.

خاتمة:

وفي نظرة ختامية، وعلى ضوء استعراض سائر القراءات التوراتية، ونقيضها القراءات العلمية الحديثة للعصر الحديدي في فلسطين، فإن هذا البحث يخلص إلى استمرارية الوجود الكنعاني في فلسطين، وباقي بلاد الشام، وسقوط الرواية التوراتية في كل أطروحاتها وفرضياتها والمرتكزة على مناهج غير علمية، ابتداء من نشوء القبائل العبرية وغزو كنعان، وإبادة الكنعانيين، وصولًا إلى نشوء إسرائيل القديمة في فلسطين وما بعدها، إذ أكدت الأدلة التاريخية والأثرية، وأخيرًا الجينية، أن الوجود الكنعاني استمر خلال العصر الحديدي في فلسطين، وأنه لا وجود لأي غزو أجنبي من خارجها. وبين البحث بما لا يدع مجالًا للشك، أن كل المجموعات التي عرفت في العصر الحديدي

كالسامريين واليهوديين والفلستيين والفينيقيين والآراميين والأدوميين وغيرهم، هي مجموعات كنعانية طورت لنفسها هويات ثقافية ولغوية فرعية، مع بداية العصر الحديدي، بسبب ما فرضته عليهم ظروف الكارثة البيئية والمناخية.

إن الكارثة البيئية وما رافقها من قحط ومجاعة وأوبئة، أسهمت بشكل مباشر في انهيار معالم الحضارة المادية في فلسطين مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي، الأمر الذي انعكس بشكل جلي على واقع السكان والأرض في سائر المجالات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها. إلا أنها لم تؤثر على ثقافتهم المادية، فقد استمرت بعناصرها الرئيسية خلال الكارثة وما بعدها.

إن كنعانيي العصر الحديدي في فلسطين طوروا لأنفسهم نظامًا سياسيًّا يختلف في شكله ومضمونه عن نظام دولة المدينة الكنعانية الذي ساد في العصر البرونزي المتأخر، فقد أنشأ الكنعانيون ذلك النظام السياسي استجابة للاحتياجات التي خلقتها حالة الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي بعد الكارثة البيئية. وفي هذا السياق، جاءت ممالك السامرة ويهودا وفلستيا وأدوم وغيرها كدول فلسطينية كنعانية محلية الثقافة والسكان، واتخذت شكلاً أكبر من سابقاتها دويلات المدن، وأقل من أنماط الدولة المركزية الكبرى، كما هو الحال في مصر وآشور وبابل.

قدم البحث فهمًا عميقًا لطبيعة الكنعانيين ودورهم الحضاري في مسار تاريخ المنطقة عبر العصور، وخاصة في العصر الحديدي، وقدرتهم اللافتة على التأقلم والتكيف مع سائر التحديات والظروف البيئية والسياسية وغيرها. كما أبرز البحث أهمية الاستعانة بسياقات ومفاهيم جديدة في العلوم المتطورة لتقديم رؤى أدق حول تاريخ فلسطين والمنطقة برمتها، إذ توضح بشكل جلي أن الشعب الفلسطيني وباقي شعوب بلاد الشام المعاصرة هم أصلانيون على أرضهم، وليسوا نتاج هجرات أو غزوات أو شتات شعوب، بل إن جيناتهم أكدت أنهم استمرارية بيولوجية طبيعية لأجدادهم الكنعانيين، وما قبلهم أجدادهم النطوفيين سكان البلاد الأصليين.

وفي النهاية، فإن هذا البحث يؤكد على توصية هامة تقدم إلى كل الجهات المختصة ذات العلاقة، فضلًا عن الأكاديميين والخبراء، بضرورة وأهمية العمل على إجراء مراجعة وتقييم شامل لجميع الأدبيات والدراسات والمراجع، وخاصة الفلسطينية منها، والتي تعتمد على مراجع وأدبيات توراتية، وساهمت بشكل غير مباشر في تشويه وتحريف تاريخ فلسطين القديم، وخلق آلية محددة للتعامل مع تلك الأدبيات والمراجع المنتشرة في مكتباتنا وجامعاتنا. إن التطور العلمي البارز في مختلف الميادين، خاصة ذات العلاقة بعلوم التاريخ والآثار، قد هيأ لنا الأرضية والقاعدة الملائمة لإطلاق مشروع علمي طموح في كتابة تاريخ فلسطين الحقيقي، وليكون نواة لما يمكن أن نسميه بمدرسة علم الآثار الفلسطيني.

الهوامش:

(1) المملكة الحثية هي مملكة أنشأها الحثيون، وهم من الشعوب الهندو أوروبية في منطقة الأناضول (تركيا حالياً)، وكان لها امتدادات في مناطق شمال كنعان (سوريا)، ونشأت هذه المملكة في أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد في الأناضول، ومن أشهر عواصمها عبر مختلف الفترات الزمنية هي حاتوشا (حالياً مدينة بوغازكال التركية)، وقد ورد ذكر الحثيين في العديد من العصور، خاصة في العصر البرونزي المتوسط.

(2) الكاشيون هم أقوام جبلية نزحت إلى بابل من المناطق الشرقية لبلاد الرافدين. ويعتقد أنهم أقوام هندو أوروبية، كونوا سلالة حاكمة لبابل في الفترة من القرن السادس عشر قبل الميلاد، وحتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وشكلوا ما يعرف بالدولة الوسطى في بابل، والتي حكمت عموم بلاد الرافدين في تلك الفترة.

المراجع:

المراجع العربية:

- إبراهيم، م. (2010). *دراسات في آثار فلسطين*. (ط2). الأردن: دار البركة للنشر والتوزيع.
- اولبرايت، و. (1971). *آثار فلسطين*. (ترجمة زكي اسكندر ومحمد عبد القادر محمد)، (ط1)، مصر: المجلس الأعلى للشؤون
- الإسلامية. (تاريخ النشر الأصلي 1949).
- تومبسون، ت. (1995). *التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي*. (ترجمة علي صالح سوداح). (ط1)، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع،
- (تاريخ النشر الأصلي 1992).
- تومبسون، ت. ويلم، أ. (2019). *الماضي العصي: دراسات في تاريخ فلسطين*. (ترجمة رانية فلفل المبيض وجمانة كيالي
- عباس). رام الله: دار الناشر، (تاريخ النشر الأصلي 2019).
- حلايقة، ع. (2014). *التراث اللغوي الكنعاني المكتوب من فلسطين*. (ط1). رام الله: المكتبة الوطنية الفلسطينية.
- ساند، ش. (2010). *اختراع الشعب اليهودي*. (ترجمة سعيد عياش)، رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. (تاريخ
- النشر الأصلي 2010).
- سواح، ف. (2002). *أرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي*. (ط5). سوريا: علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.
- طه، ح. (1999). من هم الفلسطينيون؟. *مجلة الكرمل*. (5)، 189 – 206
- طه، ح. (2000). العلاقات ما بين مصر وكنعان في العصر البرونزي. *بحث مقدم إلى المؤتمر الخامس عشر للآثار والتراث*
- *الحضاري في الوطن العربي*، 2000– 27/آذار – 2 نيسان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الجمهورية العربية السورية. دمشق شلو.
- عبابنة، ي. (2003). *اللغة الكنعانية: دراسة صوتية دلالية مقارنة في ضوء اللغات السامية*.(ط1). عمان: مجدلاوي للنشر
- والتوزيع.
- فنكلشتاين، ، ن. أ. و أشر، ن. (2007). *التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها* . (ترجمة سعد رستم)، سوريا: صفحات للدراسات
- والنشر. (تاريخ النشر الأصلي 2001).
- كفاف، ز. (2019). فلسطين خلال العصر الحديدي الأول (نحو 1000 –1200 ق.م): دراسة مقارنة بين الروايات التوراتية
- والبيانات الأثرية. *مجلة ادوماتو*، (39)، 7 – 28.
- كفاف، ز. (2011). بلاد الشام في العصر القديمة: من عصور ما قبل التاريخ حتى إسكندر المقدوني. (ط1). عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- مرقطن، م. (2022). الأوبئة والجوائح في الشرق الأدنى القديم منذ أقدم العصور حتى طاعون عمواس: دراسة في تأثيراتها في العمران البشري، *مجلة سطور*،(15)، 72 – 99.
- منى، ز. (2000). مقدمة في تاريخ فلسطين القديم. (ط1). بيروت: بيسان للنشر والتوزيع.
- نجاجرة، غ. (2012). *أنماط السكن في المرتفعات الجبلية الفلسطينية في العصر الحديدي الأول، 1200 إلى 1000 ق.م.*،
- *رسالة ماجستير غير منشورة*. جامعة اليرموك، الأردن.
- وايتلام، ك. (1999). *اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني*. (ترجمة سحر الهنيدي). (ط1). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. (تاريخ النشر الأصلي 1996).

References:

- Ababneh, Y. (2003). The Canaanite Language: A Comparative Phonetic and Semantic Study in Light of the Semitic Languages **(in Arabic)**. (1st ed.). Amman: Majdalawi for Publishing and Distribution.
- Olbright, W. (1971). The Archaeology of Palestine **(in Arabic)**. (Translated by Zaki Iskandar and Muhammad Abd al-Qadir Muhammad). (1st ed.). Egypt: Supreme Council for Islamic Affairs. (Original publication date: 1949).
- Das, A., Wexler, M. & Elhaik, E. (2017). The origins of Ashkenaz, Ashkenazic Jews, and Yiddish. Frontiers in Genetics, Lausanne, (8). 232735. 1-8.
- Feldman, F., Daniel, M., Master, R. A., Bianco, M. B., Philipp, W. S., Alissa, M. & Kruse, J. (2019). Ancient DNA sheds light on the genetic origins of early Iron Age Philistines. Science Advances, Washington, D.C., 5(7). 1-10.
- Finkelstein, N. A., and Asher, N. (2007). The Jewish Bible Unearthed **(in Arabic)**. (Translated by Saad Rustum).

Syria: Safahat for Studies and Publishing. (Original publication date: 2001).

- Grant, E. (1927). Beth Shemesh. Haverford, Pennsylvania: Biblical and Kindred Studies.
- Haber, M., Doumet-Serhal, C., Scheib, C., Xue, Y., Danecek, P., Mezzavilla, M., & Tyler-Smith, C. (2017). Continuity and admixture in the last five millennia of Levantine history from ancient Canaanite and present-day Lebanese genome sequences. The American Journal of Human Genetics, Rockville, USA, 101(2). 274-282.
- Hajjej, A., Almaw, Y. W., Arnaiz-Villena, A., Hattab, L., & Hmida, S. (2018). The genetic heterogeneity of Arab populations as inferred from HLA genes. PloS One, San Francisco, 13(3). 1-24.
- Halaika, A. (2014). The Canaanite Written Linguistic Heritage from Palestine **(in Arabic)**. (1st ed.). Ramallah: Palestinian National Library.
- Harney, É., May, H., Shalem, D., Rohland, N., Mallick, S., Azaridis, I., & Sarig, R. (2018). Ancient DNA from Chalcolithic Israel reveals the role of population mixture in cultural transformation. Nature Communications, New York City, 9(1). 1-11.
- Ibrahim, M. (2010). Studies in the Archaeology of Palestine **(in Arabic)**. (2nd ed.). Jordan: Dar al-Baraka for Publishing and Distribution.
- Kafafi, Z. (2011). The Levant in Antiquity: From Prehistory to Alexander the Great **(in Arabic)**. (1st ed.). Amman: Dar Al-Shorouk for Publishing and Distribution.
- Kafafi, Z. (2019). Palestine during the Early Iron Age (1000-1200 BCE): A Comparative Study of Biblical Narratives and Archaeological Data **(in Arabic)**. Adumatu Journal, (39), 7-28.
- Kenyon, K. (1978). The Bible and recent archaeology. UK: British Museum Publications Ltd.
- Kenyon, K. (1957). Digging up Jericho. New York: Fredrick A. Praeger Inc.
- Murqatan, M. (2022). Epidemics and Plagues in the Ancient Near East from the Earliest Times to the Plague of Emmaus: A Study of Their Impact on Human Civilization **(in Arabic)**. Sotor Journal, (15), 72-99.
- Mona, Z. (2000). An Introduction to the History of Ancient Palestine (**in Arabic)**. (1st ed.). Beirut: Bissan Publishing and Distribution.
- Najajra, G. (2012). Settlement Patterns in the Palestinian Highlands during the Early Iron Age, 1200 to 1000 BCE. Unpublished Master's Thesis **(in Arabic)**. Yarmouk University, Jordan.
- Nebel, A., Dvora, F., Brinkmann, B., Majumder, P., Partha, M., & Ariella, O. (2001). The Y Chromosome Pool of Jews as Part of the Genetic Landscape of the Middle East. The American Journal of Human Genetics, Rockville, USA, 69(5). 1095-1112.
- Sand, Sh. (2010). The Invention of the Jewish People **(in Arabic)**. (Translated by Saeed Ayash). Ramallah: Palestinian Center for Israeli Studies. (Original publication date: 2010).
- Sawwah, F. (2002). Aram Damascus and Israel in History and Biblical History **(in Arabic)**. (5th ed.). Syria: Alaa El-Din for Publishing, Distribution, and Translation.
- Taha, H. (1999). Who are the Palestinians? **(in Arabic)**. Al-Karmel Journal, (5), 189-206.
- Taha, H. (2000). Relations between Egypt and Canaan in the Bronze Age **(in Arabic)**. Paper presented at the Fifteenth Conference on Archaeology and Cultural Heritage in the Arab World, 2000 - March 27 - April 2, Arab League Educational, Cultural and Scientific Organization (ALECSO) in the Syrian Arab Republic. Damascus.
- Thompson, T. (1995). The Ancient History of the Israelite People **(in Arabic)**. (Translated by Ali Saleh Sudah). (1st ed.). Beirut: Bisan for Publishing and Distribution. (Original publication date: 1992).
- Thompson, T., and Willem, A. (2019). The Intractable Past: Studies in the History of Palestine **(in Arabic)**. (Translated by Rania Felfel al-Mubayyad and Jumana Kayali Abbas). Ramallah: Publisher House. (Original publication date: 2019).
- Whitelam, K. (1999). The Invention of Ancient Israel: Silencing Palestinian History **(in Arabic).** (Translated by Sahar Al-Hunaidi). (1st ed.). Kuwait: National Council for Culture, Arts and Letters. (Original publication date: 1996).